الكتاب ٥٦

السنة السادسة
الجزء الثانى

المجلد العاشر

ربيع الثانى ١٣٧٠
فبراير ١٩٥١

أصوات وأصداء

طه حسين باشا

سعدنا غير مرّة في هذه المجلة بالتحدّث عن الدكتور طه حسين مشيدين بآيات أدبه وعبقريته مكبرين ما اتّصف به من خلال عليّة رفيعة مثنين على ما قام ويقوم به من جلائل الأعمال في سبيل العلم وطلابه وعلى ما مهر ويمهر به المكتبة العربية من النفائس والبدائع .

ويسعدنا اليوم أن نتحدّث عنه أميراً من أمراء البيان متوّجاً بتاج العز والمجد والفخار مسجلين له في هذه الصفحة للتاريخ والتذكار منحةً ملكية سامية خصّه بها جلالة الفاروق المعظم إذ تفضل وأنعم عليه برتبة الباشوية فكانت إكليلا مرصّعاً بلآلئ الرضا والإعجاب توّجت به أعمال باهرة ضخمة نهض بها الدكتور طه حسين حتى اليوم أديباً ووزيراً .

ولقد كان لهذا الإنعام السامي صدى غبطة واستبشار في كل وادٍ ونادٍ من قريب الديار وقصيّها بل كان له رنّة فرحة وجذل في كل قلب ينزل طه حسين منه منزلة المحبة والمودّة والإجلال والإكبار وهكذا كانت لفتة المليك مكرّمة في طه حسين الأدب والأدباء حاملة إلى الجوانح والقلوب مسرّة تلقتها بصادق الشكر والدعاء .

فإلى الأديب الخالد والوزير الهمام الدكتور طه حسين باشا نقدم أخلص التهنئات على ما نال من عطف ملكي سابغ داعين له بدوام التحليق في جواء المجد والعبقرية والرفعة . . .

الفهرست

جبل طارق

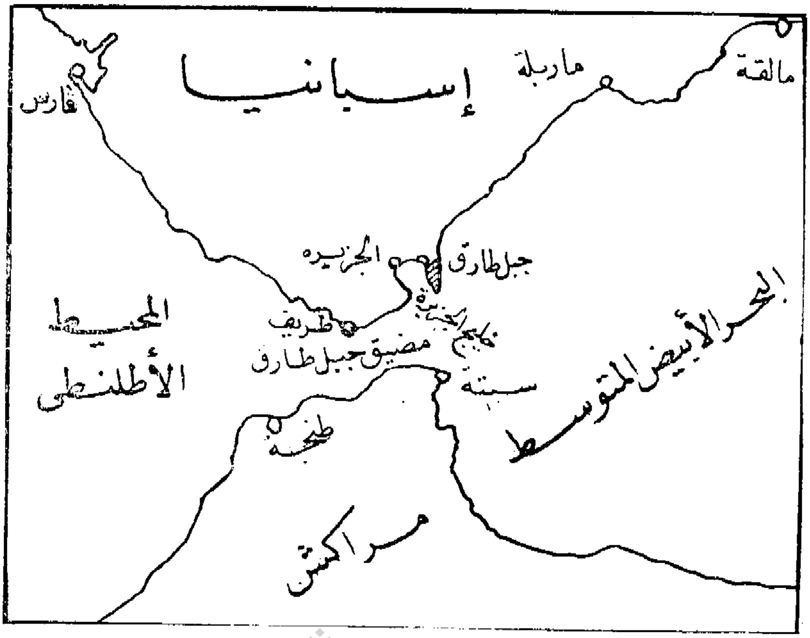
بين إسبانيا وإنجلترا

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى خلال هذه الحوادث الجسام ، التى تهز أرجاء العالم ، وتضع السلم فى ميزان ، يرتفع صوت زعيم إسبانيا الجنرال فرانكو مطالباً بإعادة جبل طارق ؛ ويقول فى تصريحاته التى أدلى بها إلى جريدة « أريبا » التى تنطق بلسان حزبه : إن هذه المسألة نضجت وحان قطافها ، وإن الأسلحة الحديثة قد جعلت جبل طارق تحت رحمة إسبانيا . على أنه يضيف إلى ذلك أن هذه المسألة تحتاج إلى شىء من التفاهم مع بريطانيا ، وأنها لا تستحق نشوب حرب بين البلدين .

وهذا التصريح الموجز الذى يدلى به زعيم إسبانيا فى هذا الظرف الدقيق ، من سير الحوادث الدولية ، يعبر عن أمنية إسبانية قديمة طال عليها الزمن دون أن يتاح لها التحقيق .

وليست أهمية جبل طارق فى صفته الإقليمية ، فهو ليس إلا صخرة كبيرة ، تكوّن الطرف الشرقى لخليج الجزيرة ، ولا يعدو طولها من الشمال إلى الجنوب ثلاثة أميال ، ويتراوح عرضها بين ربع وثلاثة أرباع الميل . ولكن أهمية جبل طارق الحقيقية هى فى صفته ومزاياه العسكرية والبحرية . فهو من هذه الناحية من أمنع المعاقل العالمية ، قد حصنته الطبيعة إلى أقصى حد . وهو يضم عدة من المغارات والأروقة الصخرية الضخمة المنيعة . وأما من الناحية البحرية فهو مدخل البحر الأبيض المتوسط من جهة المحيط ، وله ميناء بديع يصلح لإيواء أعظم السفن ، وله رصيفان كبيران طول أولها ألف ومائة ياردة ، والثانى سبعمائة . ويضم جبل طارق مدينة صخرية كثيرة الأنفاق ، تحتوى على عدد من المصانع والمستشفيات ومخازن الذخيرة والمحال التجارية والمعسكرات ، ويبلغ عدد سكانها المدنيين واحداً وعشرين ألف نفس ، معظمهم من أصل إسبانى ، وتبلغ حاميتها العادية ثلاثة آلاف جندى ونحو ستمائة بحار .



ويصل جبل طارق بالأرض الإسبانية برزخ رملى طوله نحو ثلاثة أميال وعرضه نحو ثلاثة أرباع الميل ، وتوجد بين الأرض الإسبانية وبين جبل طارق شقة حرام ، ويوجد فى البرزخ السهلى مطار الجزيرة الإسبانى .

ولجبل طارق تاريخ طويل حافل هو أكثر ارتباطا بتاريخ الشرق منه بتاريخ الغرب ، وقد كان يعرف فى الجغرافية القديمة قبل أن يطلق عليه اسم الفاتح المسلم ، بجبل كالبى ، ويسمى مع جبل أتيلا المقابل له فى الساحل الأفريقى ، بأعمدة هرقل . وكان الأقدمون يعتبرونها نهاية العالم من الغرب . ويجاريهم بعض الجغرافيين المسلمين فى ذلك ، فيسمى ما وراء جبل طارق من مياه المحيط ، بحر الظلمات ، ويعتبرونه منطقة غامضة لا نهاية لها .

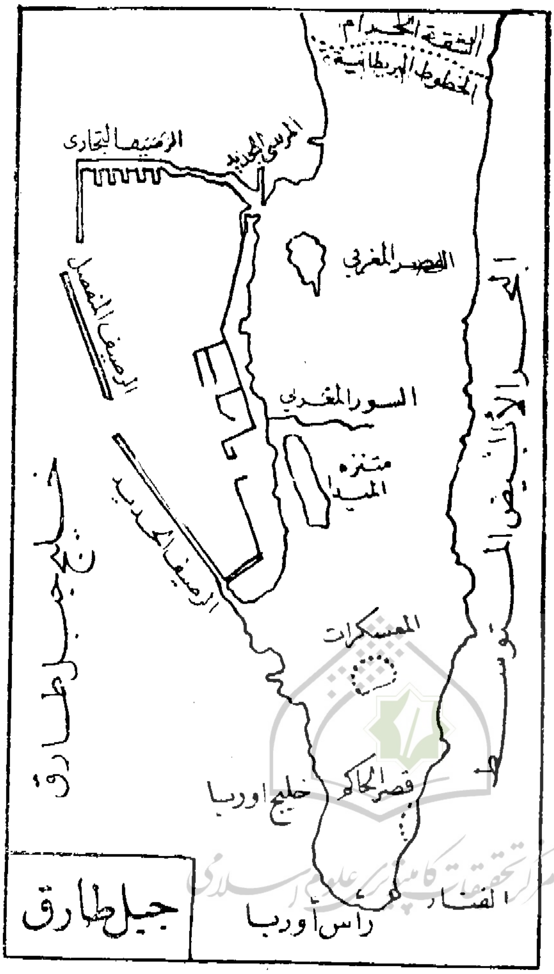
وأطلق اسم جبل طارق على هذا اللسان الصخرى المنيع منذ سنة ٩٢ هـ (٧١١م) أعنى منذ افتتح المسلمون شبه الجزيرة الإسبانية ، وذلك باسم طارق بن زياد فاتح الأندلس ، كما سميت شبه الجزيرة المجاورة بجزيرة طريف ، باسم طريف بن مالك ، زميل الفاتح ، وأول من دخل شبه الجزيرة الإسبانيه ، من القادة المسلمين ، وما زالت صخرة طارق تحمل اسمها المسلم فى الجغرافية

الإفرنجية محرفة إلى كلمة «جبرالتر» Gibraltar أو ما يماثلها .

وقد لعب جبل طارق فى تاريخ الأندلس دوراً عظيما ، وكان دائماً معبر الجيوش الإسلامية من المغرب إلى شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان يعتبر دائماً أمنع القواعد الجنوبية ، وتقابله سبته على الشاطئ الإفريقى . وفى سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١م) عبر إليها عبد المؤمن بن على أعظم ملوك الموحدين وأنشأ بها مدينة محصنة ، وابتنى بها جامعاً وقصراً وغرس بها الحدائق ، وجلب إليها الماء العذب وسماها بجبل الفتح أو مدينة الفتح ، وأقام هنالك مدى شهرين يتلقى وفود الأعيان والعلماء والشعراء . وما زالت توجد بهذه المدينة إلى اليوم طائفة من الأبراج والأطلال من بقايا المنشآت المغربية .

ولبث جبل طارق بعد ذلك أحقاباً أخرى قاعدة الوصل بين الأندلس والمغرب تعبر إليها الجيوش المغربية لنصرة الأندلس كلما دهمها الخطر ؛ ومنذ القرن الثالث عشر الميلادى تتعاقب حملات إسبانيا النصرانية لافتتاح هذا المعقل العظيم ، ويتفانى المسلمون فى الدفاع عنه لشعورهم بأهميته وخطورة موقعه بالنسبة لسلامتهم . وفى سنة ١٤٦٢ م استولى الإسبان على هذا الثغر المنيع ، فكان فقده ضربة شديدة للأندلس وكان من ممهدات سقوطها الأخير .

وبقيت قاعدة جبل طارق من ذلك التاريخ بيد الإسبان حتى فاتحة القرن الثامن عشر . وكانت هذه القاعدة القديمة تؤدى دائماً دورها التاريخى فى السهر على شاطئ إسبانيا الجنوبى ، ومدخل البحر الأبيض المتوسط . وفى سنة ١٧٠٤ م استولى عليه الإنجليز والهولنديون خلال حرب وراثة العرش الإسبانى ، ورفع عليه الأميرال بروك العلم الإنجليزى ، ووافقت الحكومة الإنجليزية على ضمه . ومن ذلك التاريخ تضع إنجلترا قبضتها على هذا الثغر المنيع ، وتتوالى محاولات الإسبان لحصاره واسترداده دون جدوى . وكانت أشهر محاولة قام بها الإسبان لاسترداد جبل طارق فى سنة ١٧٧٩ ، فحاصروه بشدة واستمر الحصار أربعة أعوام ، وقعت خلالها بين الإنجليز والإسبان عدة معارك بحرية ، وضرب الإسبان الصخرة مراراً ، وبذلوا أفدح الجهود لأخذها ، ولكنهم أخفقوا فى النهاية . ولم تقع من ذلك التاريخ أية محاولة ذات شأن لاسترداد جبل طارق من الإنجليز ، وهو اليوم بوضعه الحالى ، مستعمرة من مستعمرات التاج البريطانى ، يعين له حاكم من قبل التاج .



ويعتبر جبل طارق من أهم وأمنع المواقع والمرافئ البحرية فى خط المواصلات الإمبراطورية، الذى يمتد من جبل طارق حتى أستراليا . ماراً بمالطة فقناة السويس فعدن فسيلان فسنغافورة فأستراليا . ولم يكن استيلاء بريطانيا على هذه المواقع المتوالية خلال القرون الثلاثة الأخيرة أعمالا ومحاولات مرتجلة متناثرة ، بل كان بالعكس وفقاً لخطة محكمة بعيدة المدى ، وضعتها ونسقتها السياسة البريطانية ، ونفذتها تباعاً وفقاً لمختلف الحوادث والظروف .

* * *

والآن تغدو قاعدة جبل طارق موضع الحديث ، وتعرب إسبانيا مرة أخرى عن أمنيتها القديمة فى استردادها وتستقبل السياسة الإنجليزية كعادتها حديث الجنرال فرانكو بالصمت والإغضاء .

والواقع أن طموح إسبانيا إلى استرداد جبل طارق أمر طبيعى ، وقد قويت هذه الرغبة فى العهد الأخير وساعدت على تغذيتها ظروف الحرب العالمية الثانية . وقد ظهرت أهمية جبل طارق بالنسبة لخطوط الدفاع البريطانية فى الحربين الأولى والثانية ظهوراً واضحاً . ولم يكن ثمة شك فى أن أية ضربة ناجحة من العدو تصيب جبل طارق أو قناة السويس يترتب عليها تحطيم المواصلات البريطانية . ولهذا كانت القيادة البريطانية تحرص دائماً خلال الخطر الداهم على الدفاع عن هاتين القاعدتين بكل ما وسعت . وقد شهدنا ذلك خلال الحرب الماضية ، وقد كان الخطر على جبل طارق خلال الحرب العالمية الثانية

أشد منه فى أى وقت مضى . ذلك أن إسبانيا كانت منذ قامت بها الدكتاتورية الفرنكية بمعاونة الحراب الألمانية والإيطالية . قبيل نشوب الحرب ، تجيش بعواطف البغضاء والخصومة للدول الديمقراطية ، التى نبذتها وناصبتها العداء . وكانت ألمانيا النازية ، منذ استولت على فرنسا ووصلت إلى جبال البرنيه ، تغذى الجنرال فرانكو وحكومته بمختلف الآمال والأطماع . وكان استرداد جبل طارق والاستيلاء على مراكش والجزائر ضمن الأمانى المعسولة التى كان يلوح بها هتلر لحليفه فرانكو . وكانت إنجلترا تشعر بدقة مركزها فى جبل طارق ، ومن ورائها إسبانيا المعادية المتحفزة . وكان ثمة فريق من الساسة والقادة الإنجليز يرون أن الدفاع عن جبل طارق ومالطة أمر صعب ، وينصحون بعدم الاعتماد عليهما كحلقات فى سلسلة الدفاع الإمبراطورى . ولكن الحوادث أثبتت فيما بعد خطأ هذا الرأى . فقد استطاعت قاعدة جبل طارق أن تؤدى دورها التاريخى فى حماية الخطوط البحرية الإنجليزية ، وفى إغلاق البحر الأبيض المتوسط من الغرب ، واستطاعت الحملة الإنجليزية الأمريكية الكبرى التى أعدت لغزو شمال أفريقية (سنة ١٩٤٢) أن تسير إلى هدفها تحت حماية الصخرة المنيعة، وكان جبل طارق خلال ذلك أعظم مركز لمراقبة الغواصات الألمانية، وكان من نتائج هذه الرقابة الناجعة أن حصرت الخسائر البحرية فى هذه المنطقة فى أضيق الحدود . ولبثت مالطة من جانبها شوكة فى جانب الألمان والإيطاليين ، واستطاعت وحداتها البحرية والجوية أن تهدد خطوطهم ومشاريعهم الأفريقية، وأن تقضى عليها فى النهاية .

وكان أعظم خطر يخشاه الإنجليز على جبل طارق خلال هذه الآونة العصيبة هو هجوم الإسبان عليها من البر . ولكن الجنرال فرانكو لم يجرؤ على اتخاذ مثل هذه الخطوة . ولما أخذ نجم الألمان فى الأفول سنة ١٩٤٣ ، ولاح أن مشاريعهم فى الجنوب لم تكن إلا سراباً ، لزم الإسبان الصمت والهدوء، وانقشع الخطر عن جبل طارق.

أما عود الإسبان اليوم إلى التحدث عن استرداد جبل طارق ، فيمكن رده إلى تطور الظروف الدولية الحاضرة ، وإلى المركز الاستراتيجى الذى يمكن أن تحتله إسبانيا ، إذا نشبت حرب جديدة .ذلك أن دول حلف الأطلنطيق ، وفى مقدمتها أمريكا وبريطانيا ، تشعر بما لإسبانيا من أهمية بالغة فى خطوط الدفاع الغربية ؛ ويرى القواد الأمريكيون بنوع خاص أنه لا بد من اشتراك الجيوش الإسبانية فى جبهة الدفاع الغربية ، وأنه إذا شنت الكتلة الشرقية

هجوماً واسع النطاق على أوربا الغربية فإن جبال البرنيه الإسبانية ، تغدو العمود الفقرى لخطوط الدفاع الغربية . وتعد الموانى الإسبانية قواعدها الرئيسية للإمداد . وبالعكس فإن إسبانيا المعادية تغدو ثغرة خطرة فى خطوط الدفاع الغربية . ولهذا رأت الدول الغربية أن تعيد النظر فى موقفها من إسبانيا ، وأن تعمل على تحسين علائقها معها ، وذلك بغض النظر عن خضوعها للنظام الدكتاتورى . وكان من نتائج هذه السياسة أن اتخذت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة قرارها بإلغاء القرار الذى اتخذته الهيئة فى سنة ١٩٤٦ بسحب الممثلين السياسيين من إسبانيا ، واستئناف العلائق الدبلوماسية معها . ويشعر الجنرال فرانكو أن الدول الغربية تعمل الآن لاسترضاء إسبانيا . واستمالتها إلى جانبها ، ويرى فى ذلك مشجعاً على إثارة مسألة جبل طارق واعتبار ردها إلى إسبانيا شرطاً لكسب صداقتها وولائها .

ولكن هل ترضى السياسة البريطانية أن تنزل عن هذا المعقل المنيع الذى تسيطر بواسطته على مدخل البحر الأبيض المتوسط منذ قرنين ونصف ؟ إن تخلى بريطانيا عن جبل طارق معناه التخلى عن الحلقة الأولى فى سلسلة المواصلات الإمبراطورية التاريخية المحكمة ، ومعناه التمهيد لتخليها عن الحلقات التالية : مالطة وقناة السويس ، وبذلك تفقد بريطانيا سيطرتها البحرية على مياه البحر الأبيض المتوسط . وهذا ما نشك أكبر الشك فى أن السياسة البريطانية قد تفكر فى الإقدام عليه فى الوقت الحاضر . فبريطانيا ما تزال متمسكة بسياستها الاستعمارية القديمة . متمسكة بسيطرتها البحرية التقليدية على مداخل البحار الدافئة . وأكبر الظن أنه يجب على إسبانيا أن تنتظر ردحاً آخر من الزمان قبل أن تظفر بتحقيق أمنيتها القديمة .

محمد عبدالله عنان

حسني/ عبد

السياسة الدولية

٧
يناير
فبراير
مارس
السنة الثالثة

مجلة دورية تصدر عن
مؤسسة الاهرام
كل ثلاثة اشهر

الفهرس

رئيس التحرير
د. بطرس بطرس غالي

مدير التحرير
د. عبد الملك عودة

الادارة والتحرير والاعلانات :
١٢ ، ١٤ ش مظلوم ـ القاهرة
الاشتراكات : السنة بالبريد العادي ج.ع.م. ودول اتحاد البريد العربي ودول البحار البيضاء ـ ١٠٠ قرشا

الثمن ٢٠ قرشا

استدعى الامر التعاون مع الانجليز ، بينما كان الهدف المبدئى للمصريين هو تحرير انفسهم من ربقة الاحتلال البريطانى بجميع السبل ، ومنها التحالف والاتحاد مع الامبراطورية العثمانيـة مع تأييدهم للوحدة الاسلامية . وبعد الحـرب العالمية الاولى اصبحت الدول الغربية المستعمرة هى العدو المشترك للعرب جميعا . وقد ساعد ذلك على التوفيق بين الاهداف القومية للمصريين وبقية العرب . فترتب على ذلك أن حزب الوفد الذى كان على راس حركة القوميـة المصرية الخالصة اخذ يتراجع بعض الشىء عن موقفـه ويدعو الى سياسة تنادى بالوحدة العربية ، ولكنه مع هذا ظل يعطى الاولوية لتحقيق الاهداف القومية المصرية . وحاول الوفد مواجهة تحدى الاخوان بجذب الجماهير عن طريق الدعوة الى الوحدة العربية واتباع سياسة ترمى الى تحقيق تغير اجتماعى واقتصادى تدريجى .

وقد ظل الصراع بين الاخوان والوفد والاحزاب الاخرى يدور فى حلقة مفرغة ، لافتقار كل هذه العناصر الى الثورية الحقيقية نظرا الى عـدم ادراكها التام لمقتضيات الظروف ومشيئة جماهير الشعب ورغباته . وظل الحال كذلك حتى قامت ثورة الثـالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر ، فاولت الفكر القومى والعمل الوحدوى اهتماما خاصا واكدت هوية الشعب العربى فى مصر وحددت المفهـوم العلمى والمحتوى الاجتماعى للوحدة العربية .

وفى ختام هذا العرض لا يسعنا الا ان نهنىء الدكتور محمود اسماعيل برسالته القيمة التى تسهم اسهاما ايجابيا فى اعادة كتابة تاريخنـا القومى من جديد .

احمد يوسف القرعى

قضيـــة جبـــل طـــارق

— Gil Armangué Rius.

— Gibraltar Y Los Espanoles.

— Aguilar, Madrid, 1965.

مؤلف هذا الكتاب خيل ارمانجويه ريوس يعمل فى الحقـل الدبلوماسى ، والناشر مانويل اجيـلار يقول فى مقدمتـه أن الدروس التى يستخلصها من الكتاب فى اقل من مائة كلمة لا أكثر ، مؤداها عنده حقيقتان :

الاولى : ان كل الاسبان على اختلاف مشاربهم واهوائهم ، ومنذ بداية القرن الثامن عشر حتى اليوم يقفون جبهة واحدة ازاء مشكلة جبل طارق ، لا تفرق بينهم مذهبية أو حزبية فى المناداة بأن جبل طارق جزء سليب مهيض من الوطن الاسبانى يجب أن يعود .

الثانية : ان قضية جبل طارق تحتـل مكانا رئيسيا بين مسائل العمل الدبلوماسى فى ضـوء تصميم اسبانيا على استعادة جبل طارق من

ناحية ، واصرار بريطانيا من ناحية اخرى على عدم التخلى عن تلك الصخرة الخالدة .

الاحتلال البريطانى لجبل طارق :

يبدا المؤلف الفصل الاول بعبارة تقول « أنه منذ ان وضع الادميرال البحرى جورج روكى العلم البريطانى فوق سارية جبل طارق عندما دخل البلد فاتحا باسم الملكة آن ، فان مدينة جبل طارق لم تنتقل السيادة عليها الى التاج البريطانى بل الى التاج الاسبانى فى شخص المطالب بعرش اسبانيا آنذاك الارشيدوق كارلوس الذى جاء على ظهر سفن الاسطول البريطانى الذى غزا المدينة ونزل الى الميدان الرئيسى فيها معلنا نفسه ملكا على اسبانيا باسم كارلوس الثالث » .

والواقع ان هذه العبارة انما تشير الى ظروف حرب التعاقب على العرش الاسبانى ، وهى المناسبة التى سنحت لبريطانيا لتضع يدها على صخرة المدخل الحصين للبحر المتوسط ، وظلت هناك منذ سنحت لها تلك الفرصة فى صباح أول اغسطس عام ١٧٠٤ حتى اليوم . فلقد كانت بريطانيا والنمسا وهولندا تناوىء النفوذالفرنسى فى اسبانيا ولا تعترف بفيليب الخامس — المنتمى بصلة القربى الى الاسرة المالكة الفرنسية — ملكا على اسبانيا ، وانما وجدت بريطانيا من صالحها أن تؤيد منح العرش الاسبانى للأمير النمسوى الارشيدق كارلوس .

وربما يرجع تاريخ المحاولة البريطانية الى الثالث والعشرين من اغسطس عام ١٧٠٢ عندما ظهرت بعض القطع البحرية فى خليج قادوس يقودها الادميرال الانجليزى جورج روكى وزميله الهولندى الادميرال اوليموند وبحوزتهم وسائل نقل تكفى حوالى اربعة عشر الف مقاتل ، وكانوا متجهين لاحتلال قادس ومن ثم اثاره الشعب ضد فيليب الخامس ، وظنوا أن الشعب سيرحب بمقدمهم ويفتح لهم الابواب دون قتال . ولكن الاندلس كله فى النصف الجنوبى من اسبانيا هب للدفاع عن أرضه ومؤازرة ملكه فانسحب الغزاة بحرا الى الشمال حيث التقوا بثلاثين سفينة تجارية اسبانية غير مسلحة قادمة لتوها من رحلة فى امريكا اللاتينية ، فهاجموها فى خليج فيجو القريب الى حدود البرتغال . وعلى ضوء هاتين الواقعتين تحددت نوايا جورج روكى الذى جاء بعد ذلك ضمن حملة بحرية بريطانية ضخمة حمل لواءها العام الادميرال الامير هس درامستات وحملت فيما حملت الارشيدوق كاروس الذى أعلن خلال الرحلة وأثناء حفل أقامه خليفة الملك بطرس الثانى البرتغالى ، أنه متجه لغزو اسبانيا بصفته الملك الشرعى لها ، وفى صباح اول اغسطس سنة ١٧٠٤ دخلت القوة الرئيسية الى خليج جبل طارق وكانت تضم ٦١ سفينة حربية عليها ٤ر١٠٤ مدافع و ٢٥٫٥٨٣ مقاتلا يؤازرها ٦٨ سفينة نقل تحمل ٩٠٠٠ جندى معاون .

وكان حكم جبل طارق الاسبانى فى ذلك الحين هو الجنرال دييجودى ساليناس الضابط المدفعى قد سارع بالكتابة الى الملك فيليب بضرورة الاستعداد لمواجهة احتمال الهجوم ، فكلف الملك القائد العام لقطاع الاندلس المركيز فيلا داريياس بالاستعداد ، فحشد هذا بالفعل قوات كبيرة فى قادس ازاء توقعه أن يعود الهجوم الى قادس ذاتها ، فلما دخل اسطول الغزاة الى خليج جبل طارق لم يكن يقابلهم بالفعل اكثر من مائة رجل يقودهم ساليناس وفى حوزتهم أحد عشر مدفعا . وفى مساء اليوم نفسه نزل الى البر ثلاثة آلاف جندى بريطانى ، ووجه كارلوس الثالث نداءه الى حاكم المدينة أن يستسلم ، ولكن مجلس المدينة اعلن اصراره على مقاومة الغزاة . فلما يئس المهاجمون من أن تستسلم المدينة بلا قتال ، هاجمتها نيران الاسطول فى فجر الرابع من اغسطس سنة ١٧٠٤ فاشتعلت فيها النيران وأزهقت أرواح عديدة ، ولجأ اهل المدينة فزعين الى ساحة الكنيسة الكبرى واجتمع زعماؤهم فى هيئة مجلس ولم ير المجلس بدا من التسليم تفاديا لضياع المزيد من الارواح ولوقوع الدمار الشامل بالمدينة ، وهكذا تم استيلاء الغزاة على جبل طارق بعد ظهر اليوم نفسه . وقبل أن تغرب الشمس حمل روكى العلم البريطانى ولوح به ثلاث مرات ثم ثبته على قمة الجبل معلنا باسم الملكة آن البريطانية الاستيلاء على جبل طارق ، وبقى الامير هس دارمستات بعد ذلك كأول حاكم بريطانى للمدينة وبقيت تحت امرته قوة من الف وثمانمائة جندى بريطانى وكتيبتين هولنديتين .

واتفق أهل المدينة فيما بينهم على الرحيل وعدم الاقامة فى جبل طارق طالما بقى العلم البريطانى يرفرف عليها ، وغادروها بالفعل فى صباح السادس من اغسطس سنة ١٧٠٤ وبينهم العمدة ساليناس الذى حمل انباء الواقعة الى فيلا دارياس القائد العام للاندلس ، أما الاب روميرو راعى كنيسة جبل طارق فقد سجل على رقعة تحمل تاريخ السادس من اغسطس ان الذين بقوا فى المدينة من اهلها بعد قرار الهجرة الجماعية لا يتجاوز عددهم اثنى عشر .

وفشل الاسطول البريطانى بقيادة روكى فى احتلال ملقه بعد أن تدخل الاسطول الفرنسى الذى كان قادما فى الاصل للحيلولة دون وقوع جبل طارق فى يد الغزاة الانجليز ، فشارك القوات الاسبانية التى يقودها فيلا دارياس فى حصار الغزاة فى جبل طارق ولان الحصار فشل بل ذهبت محاولات الهجوم المتعدد دون جدوى وبذلك وضعت بريطانيا يدها نهائيا على المدينة وان لم يتخذ ذلك الصفة الشرعية الا بعد انعقاد مؤتمر اوترخت الذى تمخض عن معاهدة اوتريخت سنة ١٧١٣ التى حسمت حرب التعاقب على العرش الاسبانى على أساس نظرية توازن القوى . وكانت هذه النظرية هى الاساس الرئيسى فى أسلوب حسم المشكلات فى العلاقات الدولية خلال القرن الثامن عشر ، ومؤداها انه يجب الابقاء دوما على التساوى فى القوة بين الدول الكبرى بل التساوى ايضا فى مقومات القوة والموارد الرئيسية ، بحيث اذا بدا لاحدى الدول انها وصلت من القوة حدا يمكنها من مهاجمة غيرها — وقد كانت منطق العصر ان الغلبة للأقوى — سارعت باقى الدول الى الاتفاق فيما بينها لوقف الدولة النامية القوة عند حد معين يضمن عدم تماديها فى العدوان ضد جاراتها .

وقد قضى صلح اوتريخت بأن تظل اسبانيا لملكها فيليب الخامس وان يتخلى عن اطماعه فى فرنسا كما يتخلى المرشح لعرش فرنسا عن اطماعه فى اسبانيا ، واهم ما يعنينا هنا ان معاهدة أوتريخت قد اعترفت لانجلترا بشرعية وجودها فى جبل طارق وجزر مينوركا الاسبانية .

وشرعية الوجود البريطانى فى جبل طارق ، كما اقتضت معاهدة اوتريخت ، يقيدها عدد من الشروط التى حددتها المعاهدة نفسها من حيث حدود المنطقة والاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى جبل طارق ، وكذا حق التصرف فيها . واسبانيا ترى أن هذه الشروط والحدود قد انتهكها الانجليز بل أساؤا ايضا استعمال حقهم فى البقاء فى المنطقة بصورة يعتبرها الاسبان من مبررات المطالبة بتخلى بريطانيا وعودة جبل طارق الى الوطن الام اسبانيا .

اسبانيا .. واستعادة جبل طارق :

وقد ظلت مشكلة جبل طارق جرحا داميا يؤلم الاسبان منذ الاحتلال البريطانى ، واتخذت محاولات استعادته صورا متعددة ومختلفة حسب الظروف المحيطة بالمشكلة . ومؤلف الكتاب دون ارانجويه ريوس يستعرض الحلول المختلفة التى لجأ اليها الاسبان دون جدوى . وأول هذه الحلول — وليس آخرها — كان الالتجاء الى القوة لاستعادة هذا الجزء السليب ، فقد فكر البعض فى اشعال النار هناك أو قصف المدينة بالمدافع من برج مرتفع يشيد خصيصا لهذا الغرض قرب الجبل ، كما خيل للبعض انه يمكن استعادة المدينة بقصفها بمدافع الاسطول الاسبانى الشهير ، اسطول ميشودى آركون لكن تبين انه من المستحيل ان تتم استعادة المنطقة عن طريق البحر ، وكان السبب الرئيسى هو نمو قوة الاسطول البريطانى بدرجة فاقت سائر القوى البحرية الاخرى ، وقد احتوت المعاهدات الموقعة بين فرنسا واسبانيا فى القرن الثامن عشر التضامن لحل مشكلة جبل طارق ، واهم تلك المعاهدات تلك التى وقعتها الدولتان فى اعوام ١٧٢١ ، ١٧٢٥ ، ١٧٣٣ ، ١٧٤٣ ، ثم ١٧٧٩ .

ويقول المؤلف أن السيطرة على جبل طارق كانت تشير فى الواقع الى مقياس التفوق البحرى ، حتى انه يورد عبارة للكاردينال جوليو البيرونى تقول « انه ان لم يتوافر للاسطولين الاسبانى والفرنسى من القوة ما يفوق الاسطولين البريطانى والهولندى فلا محل للحديث عن عودة جبل طارق » هكذا كان منطق الاسبان فى القرن الثامن عشر وقد فشلت محاولات ثلاث للهجوم على الانجليز فى جبل طارق مما اقنعهم بعدم جدوى الالتجاء الى القوة فى حسم المشكلة . وحتى فى القرن التاسع عشر نصادف العبارة الشهيرة التى يرددها

فرانسيسكو ماريا مونتيرو فى كتابه « تاريخ جبل طارق » يقول « سيبقى جبل طارق انجليزيا طالما بقيت انجلترا هى القوة البحرية الاولى فى العالم » .

ولقد دعمت بريطانيا وجودها فى جبل طارق وأحالته فى القرن الثامن عشر الى قاعدة بحرية مهمة ودعامة قوية لمراكزها البحرية الاخرى ، وقد تنبهت الى اهميته الاستراتيجية منذ اللحظة الاولى كبوابة بين المحيط والبحر المتوسط ومنفذ احتاجت الى السيطرة عليه تأمينا لمواصلاتها الى الهند عن طريق شرق البحر المتوسط .

واتجه الاسبان الى الحلول السلمية فبدا للبعض انه يمكن استعادة جبل طارق عن طريق شرائه من الانجليز . ومن اهم الشخصيات الاسبانية التى نادت بهذا الحل خوسيه دى كامبيلو وكذلك خوسيه دى كارفاخال وفلوريدا بلانكا . ولما لم تجد فكرة شراء البنيون (اى جبل طارق) دعا فلوريدا بلانكا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الى مبادلة جبل طارق بأى منطقة اخرى . واقترح الاسبان بديلا لجبل طارق منطقة اوران ، أو منطقة ماتا لكفير أو جزيرة سانتو دمنجو ، بل قدم الاسبان كبديل لجبل طارق بورتوريكو أو كاراكاس او جزر الباهاماس ، ولكن بريطانيا كانت تدرك أن لقاءها فى جبل طارق يعطيها ميزة كبرى فى الاطلنطى والبحر المتوسط ويزيد امكانياتها التجارية فى الشرق الاقصى وفى افريقيا ، ولذلك احجمت عن قبول الحلول السالفة الذكر مما زاد الم الاسبان وحقدهم الذى يعبر عنه فرانسيسكو كاناليخاس بقوله « ان جبل طارق صفعة دائمة على اصداغنا نحن الاسبان لا يمكن ان تمحى من ذاكرتنا » وهذا الشعور يفسر لنا الحل الغريب الذى شاع فى الحقبة نفسها وهو يقضى بأن تتنازل بريطانيا عن جبل طارق الى « البابا » برضا اسبانيا .

وينتهى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وقد فشلت المحاولات السلمية ، ويأتى القرن التاسع عشر لتبدأ مرحلة جديدة من محاولات التفاهم بعد أن تخلى الاسبان نهائيا عن اسلوب القوة منذ النصف الاول من القرن الثامن عشر . والمعروف ان القرن التاسع عشر وقعت خلاله حروب الاستقلال ووحدة الكيان الوطنى ، وخلاله كان النضال فى أمريكا اللاتينية ثم الخلافات الدستورية والهزات المختلفة بسبب تعاقب الجالسين على العرش وتغير الحكومات . وهذه فى نظر المؤلف اسباب شغلت الاسبان من حين الى آخر عن التحمس لاستعادة جبل طارق . ومع ذلك فقد برز من بين الاسبان فى هذا القرن رجال اهتموا بالمشكلة من أمثال الماركيز دى بوئوبوينو الذى تفاوض لاستعادة الجبل مع اللورد ستانهوب وكراجز وتونشند ، كذلك الماركيز دى لاباث الذى ظل اهتمامه بالمشكلة وحماسه لحلها بالقدر نفسه حتى بعد أن بلغ سن الثمانين : فأما موقف العسكريين الاسبان فى القرن التاسع عشر ، فيعلن المؤلف انه يتمثل فى رأى كاميلو فاليس مو ديستو نافارو وخوسيه ابانييس ومؤداه : انه يمكن الاستغناء عن جبل طارق عسكريا بتحصين المواقع الاسبانية المحيطة بها وانتظار الوقت الملائم ، خاصة وأن الاهمية الاستراتيجية والتكتيكية للجبل قد قلت فى نظرهم فتحول جبل طارق الى محطة لتموين السفن الذاهبة الى الهند ، ومما يذكر فى هذا الشأن ان تحوله من قلعة عسكرية الى مستعمرة والى مدينة تجارية ، هو تغير يعتبر خرقا لمعاهدة اوتريخت فضلا عن انتشار التهريب عن طريق جبل طارق ، وقد ندد الاسبان بذلك منذ البداية حتى اليوم .

ويعود المؤلف الى القول بأن الاتجاه فى القرن العشرين قد نحا الى التماس الحذر والمعقولية والحزم المشوب بالرغبة فى التفاهم مع المملكة المتحدة ، فلقد انتظر الاسبان أن يتحول جبل طارق من مركز للطغيان والعار الى مركز للتعاون والتفاهم المشترك ، وفى هذا يورد المؤلف عبارة لفرناندو ماريا كاستييا وزير الخارجية الحالى قالها فى عام ١٩٤١ « ان اسبانيا تريد حل مشكلة جبل طارق لانها لا تريد أن يبقى بينها وبين الشعب الانجليزى خلاف من اى نوع ، بل تريد ايضا محو كل عداء موروث » . فأما سلفادور دى مادرياجا فيقول « ان مواصلة بريطانيا احتلال جزء من الارض المنتمى بالقانون الطبيعى الى بلد اوربى آخر ، هو من قبيل العودة بالتاريخ وبالعلاقات الدولية الى عهد « الحياة للاقوى ظفرا » .

ويردد المؤلف ان الاختلاف حول جبل طارق يحول دول دعم علاقات الود والصداقة ، وان

مما يؤلم اسبانيا ايضا اهدار ما للاسبان المقيمين فى سان روكى من حقوق انسانية وهم ابناء واحفاد اهل جبل طارق الأصليين الذين نزحوا عنها . ثم يعود الى القول بأن كاستيلا قد عبر فى الامم المتحدة عن الرغبة فى التفاهم مع بريطانيا حول المشكلة اذ تقدر اسبانيا الصداقة مع بريطانيا حق قدرها . ويفسر المؤلف ذلك بقوله « لقد اغلقت اسبانيا بنفسها باب العنف منذ منتصف القرن الثامن عشر » .

مشكلة جبل طارق فى الامم المتحدة :

ونأتى مع المؤلف دون خيل ريوس الى المرحلة المعاصرة وهى التى تتحدد فى اطار تدويل قضية جبل طارق ووجهة نظره فى هذا الخصوص انه « لما كان اتجاه الامم المتحدة هو انهاء الاستعمار بكل صورة بسرعة وبغير شروط ، وكذا الاستعمار الجديد ، فان ذلك ينطبق على جبل طارق » ، وقد أبرز دون خايمى بنييس امام الامم المتحدة ان الوضع الاستعمارى فى جبل طارق يعتبر من وجهة النظر القانونية ناشئا من التدخل الصريح فى الشئون الداخلية لبلد آخر ، أما جونثا لوفرناندس دى لامورا ونونيو اجيرى دى كاثر فقد كتبا فى عام ١٩٦٣ تحت عنوان السياسة الاوربية فى كتابهما عن « السياسة الخارجية الاسبانية » حول المشكلة نفسها يقولان « لقد ظهر التحسن فى العلاقات الاسبانية البريطانية على ضوء الزيارة التى قام بها وزير الخارجية البريطانية اللورد هيوم الى اسبانيا وكذا وزير الداخلية المستر بتلر ، على ان ذلك التحسن سيبقى دائما مشوبا بالمشكلة المعقدة ، مشكلة جبل طارق ، تلك المشكلة التى يجب ان يحين اليوم الذى تتم فيه مواجهتها بمنطق الواقع وبروح العصر » وفى عام ١٩٦٤ اعلنت لجنة تصفية الاستعمار فى الامم المتحدة فى السادس عشر من أكتوبر ضرورة تطبيق مبدأ تقرير المصير فى جبل طارق ، بناء على طلب اهل المنطقة نفسها وأوصت اللجنة باجراء مفاوضات ثنائية بين اسبانيا وبريطانيا لحل النزاع . ونص قرار اللجنة بجلستها رقم ٢٩١ يقول « ان اللجنة الخاصة بعد دراسة الموقف فى اقليم جبل طارق غير المستقل ، وبعد ان استمعت الى ممثلى الدول التى تدير الاقليم وممثلى اسبانيا والى الطلبات الواردة من اهالى الاقليم ذاته . تؤكد ان مقومات اعلان منح الاستقلال يمكن تطبيقها على هذا الاقليم . . » .

وفى عام ١٩٦٥ أعلنت الجمعية العامة للامم المتحدة فى دورتها العشرين موافقتها بأغلبية ٩٦ صوتا مقابل لا شىء وامتناع ١١ عن التصويت على مشروع قرار يدعو بريطانيا واسبانيا الى التفاوض بخصوص المشكلة .

وهكذا تتابعت المحاولات السلمية المتعددة التى تلجأ اليها اسبانيا لاستعادة جبل طارق بعد ان تخلت نهائيا عن اسلوب العنف ، برغم ارتفاع بعض الاصوات بمناسبة تحرير منطقة السويس ثم كفاح شعب عدن منادية بضرورة الالتجاء الى اسلوب الكفاح لاستعادة جبل طارق . ومما يذكر بهذه المناسبة ان السلطات الاسبانية قد لجأت خلال العامين الأخيرين الى فرض قيود على صيد الاسماك فى مياهها الاقليمية المواجهة لجبل طارق وعلى انتقال المتاجر والافراد بين جبل طارق وباقى الاراضى المحيطة بها . وقد ابلغت اسبانيا من بداية العام الحالى ١٩٦٦ حكومات الدول الاعضاء فى حلف الاطلنطى انها لن تسمح لطائراتها العسكرية بالتحليق فوق أراضيها فى طريقها الى جبل طارق نظرا الى الأخطار التى تتعرض لها اسبانيا نتيجة لاستخدام جبل طارق كقاعدة لحلف الاطلنطى ، وتقدمت حكومة مدريد احتجاجا رسميا الى حكومة لندن على انتهاك الطائرات الحربية البريطانية للمجال الجوى لاسبانيا .

ولاشك أن المؤلف قد نجح فى أن يقدم للقارىء الاسبانى وثيقة شاملة حافلة بالبيانات والمعلومات وأن يجعل منها فى الوقت نفسه مرجعا يسجل وجهة نظر الاسبان من خلال ما تعكسه كتاباتهم واناشيدهم التى تدور حول المشكلة .

ولربما جاز القول بأن الكتاب يتميز بطابع الحماس الممزوج بالقلق ، والايمان المتسم بالتفاؤل والامل فى امكانية التوصل الى حل سلمى لهذه القضية .

د. أحمد محمد ابو ...

الهلال

الجزء ٢٣ و ٢٤ — السنة الثامنة

(١٥ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٠ (٢١) جمادى اول سنة ١٣١٨ (٥ توت سنة ١٦١٧)



الدكتور محمد دري باشا

ورغبتهم في تأدية بدل اشتراكهِ وتوفر القيمة في حدودهم — فهم مع كل ذلك لا يكلفون انفسهم مشقة ارسال القيمة الى مكتب البريد لتحويلها الى ادارة الهلال بمصر او استبدال النقود بطوابع بوسطة ترسل في كتاب الى هذه الادارة . واغرب من ذلك ان الاهمال تمكن من بعضهم الى درجة مضحكة لا بأس من ايرادها على سبيل الفكاهة وذلك ان احدهم تأخر عليهِ بدل الاشتراك فخاطبتهُ الادارة بمنشور كالعادة تطلب فيهِ تسديد القيمة . فلما مضى شهر ولم يجب خاطبتهُ ثانية ثم ثالثة وهو لا يجيب لا سلبًا ولا ايجابًا والادارة تعلم ان المشترك المشار اليهِ من خيرة الاماجد . فصبرت عليهِ مدة اخرى وخاطبتهُ بمنشور رابع فاجابها مغضبًا لتكرار الكتابة اليهِ في هذا الموضوع لانهُ ارسل القيمة مع بعض اصدقائهِ قبل ورد المنشور الاول اليهِ . فقلنا يا ليتهُ كلف نفسهُ هذا الجواب عند وصول المنشور الاول فكنا كتبناه وكفينا انفسنا مشقة المخابرة وطالبنا صديقهُ بالقيمة

على ان الذين نشكو اهمالهم نفر قليل . واما جمهور القراء فاكثرهم يسددون اشتراك السنة قبل انقضائها . فطريقة الانكليز وغيرهم من امم اوربا من ارسال القيمة مقدمًا من افضل الوسائل وابسطها واوجبها ولكننا لا نظن هؤلاء وصلوا اليها دفعة واحدة فنرجو ان يتعود قراؤنا الكرام ذلك رويدًا رويدًا

جبل طارق والانكليز

ومنهُ

كيف توصل الانكليز الى تملك جبل طارق واي متى

(الهلال) يغلب على الظن ان هذا الجبل كان معروفًا عند الفينيقيين على اثر اسفارهم التجارية والاستعمارية . لكنهم لم يتركوا اثرًا يدل على ذلك الا اسمهُ عند اليونان والرومان وهو كالبي أو البي ولا معنى لهُ باليونانية او الرومانية والغالب انهُ فينيقي الاصل

ولما فتحهُ المسلمون في القرن الثامن للميلاد سموه « جبل طارق » نسبة الى طارق بن زياد اول من وطئهُ منهم . وما زال في حوزة المسلمين حتى استرجعهُ

الاسبان بعد مواقع هائلة ومحاصرات عديدة . وما زال عرضة لما ينتاب اسبانيا من اختلاف الاحكام والحكام حتى كانت الحرب المشهورة بحرب الوراثة الاسبانية التي ابتدأت في اول القرن الثامن عشر بعد وفاة شارل الثاني آخر سلالة ملوك النمسا عليها . ولم يكن له وريث فاوصى بالملك لامير فرنساوي اسمهُ فيليب انجو حفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسا . فخلفهُ فيليب وسمي فيليب الخامس وهو رأس عائلة البوربون الاسبانية . فادعى حق الملك الارشيدوق شارل احد اعضاء عائلة ملوك النمسا وترتب على ذلك حرب بين النمسا واسبانيا امتد سعيرها الى سائر اوربا . فانتصرت فرنسا لفيليب وانتصرت انكلترا وبروسيا وهولندا للنمسا ودارت الدائرة اخيرًا على فرنسا واسبانيا مما لا محل لتفصيلهِ هنا

ففي اثناء هذه الحروب جاء اسطول متحد من الانكليز والبروسيانيين الى جبل طارق بامارة السير جورج روك واحتلوا جبل طارق باسم الارشيدوق شارل في ٤ يوليو سنة ١٧٠٤ ولكن السير جورج روك المذكور لم يدع تلك الفرصة تفوتهُ لخدمة دولتهِ فرفع العلم الانكليزي على ذلك الجبل باسم المملكة حنة . وقد وافقت انكلترا على هذا الاحتلال مع ان كتاب الانكليز انفسهم يعدونهُ تعدّيًا . واما اهل الجبل فلم يذعنوا لذلك الاختلاس فهجروا المنازل والمدن ورفعوا ظلامتهم الى حكومة اسبانيا . فارسلت اسبانيا عمارة بحرية لاسترجاعهِ فردَّها الانكليز وشتتوا شمل رجالها ثم دارت المخابرات بين الدولتين والاسبان يطلبون استرجاع الجبل وبعد جدال عشرين سنة اضطر الاسبان الى استخدام القوة في استخراج الانكليز فجردوا حملة أُخرى لم يكن حظها من النجاح احسن من حظ سابقتها

وحاول الاسبان محاصرة جبل طارق غير مرة أهولها حصار سنة ١٧٧٩ الى ١٧٨٣ فقد اتحد فيهِ الاسبان والفرنساويون وضيقوا الحصار برًّا وبحرًا والانكليز في حصونهم وقلاعهم يدافعون ويماطلون . وفي ١٢ سبتمبر سنة ١٧٨٢ هجم الجيشان على حصون الجبل هجمة اليأس ولكنهم ارتدوا خائبين واحترقت مدرعاتهم وتشتت رجالهم وقتلوا قتلاً عظيماً . وكانت تلك الضربة قاضية على مطالبة الاسبان بحقوقهم هناك . والانكليز يعدون يوم ١٢ سبتمبر من ايام النعيم عندهم لان في مثلهِ من هذا القرن غلبوا العرابيين في واقعة التل الكبير التي قضت على عرابي وحزبهِ واذنت بالاحتلال

الانكليزي طبقًا لنبوة اللورد وولسلي يومئذٍ . وبين يوم جبل طارق ويوم النل الكبير قرن كامل فان الاول وافق ١٣ سبتمبر سنة ١٧٨٢ والثاني وافق ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ فتأمل

وظلَّ من بقي من الجنود المحاصرة حول جبل طارق الى ٢ فبراير سنة ١٧٨٣ اذ ابرم الصلح وتقررت سيادة انكلترا على ذلك الجبل ولا تزال

رفض الرتب والنياشين

(الروضة) فخري افندي خليل

اشاع بعضهم هنا ان جلالة السلطان عبد الحميد خان انعم عليهِ بالرتبة الثانية فرفضها بدعوى انهُ صغير وان رئيسهُ لم يحرز على رتبة من الرتب . فهل يتدنى لاحد الرعية ان يرفض رتبة أُنعم بها عليهِ ارجو الافادة

(**الهلال**) نعم يجوز وقد اتفق ذلك لكثيرين وربما كان الرفض اسباب غير ماذكرتم . واما كيفية الرفض فان الارادة العلية تصدر بمنح الرتبة الفلانية لزيد من الناس فترسل اليهِ العريضة المؤذنة بذلك (البيلوردي) وبها تثبت لهُ حقوق تلك الرتبة . ولا بد من تسليمهِ تلك العريضة على يد احد المأمورين الرسميين بعد ان يؤدي الرسوم القانونية عليها . فاذا لم يشأ قبول الرتبة لا يستلم العريضة . وكثيرًا ما سمعنا باناس رفضوا وسامات والقابًا من اعظم دول اوربا

لغة آدم

(ماوسنطا دومنيكو) طنوس افندي لحود ابو ناصر

ما هي اللغة التي كلم الله بها آدم في الجنة هل هي سريانية ام عبرانية ام ماذا

(**الهلال**) ان الجواب على سؤالكم يقتضي البحث عن اللغة الاولى الاصلية التي تفرعت عنها لغات العالم . وهو بحث شغل علماء اللغات اجيالاً متطاولة فزعم بعضهم انها اللغة العبرانية وآخرون انها السريانية وآخرون العربية وربما

دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث

العدد الحادي عشر : جمادى الأولى ١٤٢٣هـ - يوليو (تموز) ٢٠٠٢م

آفاق الثقافة والتراث

مجلة علمية دورية محكمة

تعنى بالدراسات الإسلامية وإحياء التراث

المحتوى

الأهمية السياسية والعسكرية لمضيق جبل طارق في تاريخ المغرب والأندلس

من الفتح حتى سقوط الخلافة ٩٢ - ٤٢٢ هـ / ٧١٠ - ١٠٣٠ م

د. نهلة شهاب أحمد*

التعريف بالبحث :

يهدف البحث أولاً إلى التعريف بمضيق جبل طارق .ثم يتعرض إلى دور المضيق في فتح شبه جزيرة إيبريا، حيث إن طبيعة الموقف على جانبي المضيق في العقد الأخير من القرن الأول الهجري، كانت تؤكد ضرورة الإسراع في فتح شبه الجزيرة. فجاءت حملة طارق بن زياد عام ٩٢هـ / ٧١١ م، والتي استطاع من خلالها أن يفتح أولاً الساحل الإيبري للمضيق، وبذلك أحكم سيطرته على المضيق بكامله، وأمَن خطوط مواصلاته، ثم جاءت عملية عبور حملة موسى بن نصير سنة ٩٣هـ / ٧١٢م للمضيق، والتي تمت في ظل وضع أمين ومستقر.

ثم تناول البحث المضيق على عصر الولاية (٩٥هـ -١٣٨هـ / ٧١٤م-٧٥٥م)، حيث يبرز دوره خلال هذه الحقبة التاريخية في أحداث الفتن والاضطرابات الداخلية في المغرب سنة ١٢٢هـ / ٧٤٠م، وانتقال صداها وتأثيرها عبر المضيق إلى الأندلس.

وتظهر أهمية المضيق على عصر الإمارة (١٣٨-٣١٦هـ / ٧٥٥-٩٢٨م)، في تأسيس عبد الرحمن بن معاوية الإمارة في الأندلس، وفي أحداث هيجة الربض، ومن خلال تعرض المضيق بساحليه إلى هجوم النورمان.

وأخيراً يتضح دور المضيق على عصر الخلافة الأموية (٣١٦-٤٢٢هـ / ٩٢٨-١٠٣٠ م) من خلال الأزمة السياسية والعسكرية بين الفاطميين في المغرب والأمويين في الأندلس.

* أستاذة مساعدة في قسم التاريخ بكلية التربية جامعة الموصل. ولدت سنة (١٩٥٨م)، وحصلت على شهادة الماجستير من كلية الآداب بجامعة الموصل سنة (١٩٨٧م)، وكذلك الدكتوراه سنة (١٩٩٦م)، وهي عضوة اتحاد المؤرخين العرب. ولها عدد من البحوث المنشورة.

أولاً : تعريف مضيق جبل طارق :

إن مصطلح مضيق جبل طارق قد جاء مرادفاً لتسميات عديدة ، منها : « بحر الزقاق »[(١)] ، و « المجاز »[(٢)] ، و « مجمع البحرين »[(٣)] ، كما عرف في التاريخ القديم بـ « مضيق قادس » أو « مضيق هرقل »[(٤)] .

وتدور فكرة الأسطورة التي قيلت بشأن المضيق ، حول قصة دخول الإسكندر إلى شبه جزيرة إيبريا (Iberian peninsula) ، ولقائه بأهلها الذين أبدوا له استياءهم من جيرانهم المقابلين لهم في المغرب ، والذين كانوا يتحينون الفرص للانتقال إلى شبه جزيرة إيبريا مستخدمين أرض المضيق اليابسة معبراً لهم ، واستجابة لطلبهم ولتخليصهم من تدخّل أهالي المغرب ببلادهم ، أمر المهندسين بغمر أراضيه وتشييد أرصفة على جانبيه[(٥)].

ومضيق جبل طارق ممر مائي ضيق[(٦)] تلتقي فيه مياه غرب البحر المتوسط مع مياه شرق المحيط الأطلسي ، ويبلغ طوله ثلاثة وثلاثين ميلاً ، (أي واحداً وستين كيلو متراً) ، أما عرضه فيبلغ أربعة وعشرين ميلاً بحرياً[(٧)] ، (أي أربعة وأربعين كيلو متراً) عند النهاية الغربية ، وثلاثة عشر ميلاً (أي أربعة وعشرين كيلو متراً) عند النهاية الشرقية ، وأضيق

---

(١) الجغرافية للزهري ص٣ ، القارة الإفريقية للإدريسي ص٢٤٦.

(٢) القارة الإفريقية ص٢٤٦.

(٣) المغرب للغرناطي ص١٥.

(٤) دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس لأمين توفيق الطيبي ص٢٧٩ .

(٥) القارة الإفريقية ص٢٤٦ ، المعجب للمراكشي ص٤٤٩ ، نفح الطيب للمقري ١/١٣٢-١٣٣ ، الاستقصا للسلاوي ١/٦٧ - ٦٨.

(٦) تعرف المضايق عموماً بأنها : ممرات ضيقة تصل بين بحرين وتتكون من اقتراب الساحلين لمسافة تقدر في العرف الدولي بنحو ضعف اتساع البحر الإقليمي ، ينظر القاموس السياسي لعطية الله ص١١٨٢.

(٧) الميل البحري يساوي ١٨٥٣ متر .

ينظر : Oxford Dictionary of Gurrent English , A.S. Horaby.

عرض للمضيق يبلغ سبعة أميال ونصف (أي أربعة عشر كيلو متراً) وتصل أعماقه إلى قرابة ستمائة قامة بحرية[١].

يضم ساحل المضيق من جهة المغرب العربي كلاً من مدينة سبتة Ceuta ، وقصر مصمودة ، وطنجة Tangeir [٢]، ويضم من جهة شبه جزيرة إيبريا كلاً من جبل طارق Gilbrattar ، والجزيرة الخضراء Algeciras ، وجزيرة طريف Tarifa [٣].

ثانياً : دور المضيق في فتح شبه جزيرة إيبريا :

لم يأت الفتح العربي الإسلامي لشبه جزيرة إيبريا اعتباطاً وعشوائياً ، بل جاء ضمن خطة مركزية وضعها قادة الفتح في المنطقة والسلطة المركزية في دمشق ، وقد برز في هذه الفتوح القائدان طارق بن زياد ، وموسى بن نصير ، إذ تولى الأخير ولاية إفريقية أواخر العام (٨٥هـ/٧٠٤م) وأثبت جدارته الإدارية والعسكرية ، وتمكن بمساعدة طارق بن زياد من إكمال تحرير المغرب ، باستثناء مدينة سبتة التي استعصت عليه ، إذ أبدى حاكمها يوليان مقاومة كبيرة ، وقد ساعدته في ذلك الحصانة الطبيعية للمدينة ، والمساعدات التي كان يتلقاها من القوط في شبه جزيرة إيبريا في عهد ملكهم غيطشة ، ولم يتوقف موسى عندها طويلاً ، بل تركها وزحف بجيشه نحو طنجة [٤].

وقد تغير موقف يوليان بعد أن تمكن العرب المسلمون من تحرير معظم أجزاء الشمال الإفريقي ، الذي أصبح جزءاً من دولتهم ، فوجد أن من مصلحته الخضوع لإرادة العرب المسلمين ، فقد أصبح بعيداً عن مركز الدولة البيزنطية في القسطنطينية ، وفي الوقت نفسه

---

(١) جغرافية النقل لحبيب وطعماس ص١٤٢ .
والقامة البحرية تساوي ١,٨٢٨ متراً ، ينظر :
Oxford Dictionary of Gurrent English A.S. Horaby.

(٢) القارة الإفريقية للإدريسي ص٢٤٧ ، المعجب ص٥١٤ - ٥١٥ ، الجغرافيا لابن سعيد ص ١٣٩ .

(٣) القارة الإفريقية ص٢٥٠.

(٤) أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص١٥ ، نفح الطيب للمقري ٢٣٤/١.

توقفت المساعدات والإمدادات التي كانت ترسل له من شبه جزيرة إيبريا بعد وفاة حليفه القوطي غيطشة ، وسيطرة لذريق على الحكم ، وانشغاله بمشكلاته الداخلية [١] ، لذا فقد أرسل إلى موسى بن نصير يطلب الصلح بشرط أن يبقى حاكماً على سبتة مقابل اعترافه بالحكم العربي [٢] ، وقد وافق موسى بن نصير على طلبه ، ثم عاد إلى القيروان ، تاركاً طارق بن زياد عاملاً على طنجة وقائداً للحامية العسكرية فيها [٣] .

وفي هذه الأثناء اتصل يوليان بقادة الفتح العربي الإسلامي ، ودعاهم إلى فتح شبه جزيرة إيبريا [٤] فشجع العرب ، ولكن لم يكن هو السبب الرئيسي الذي دفعهم للفتح كما تذكر أغلب المصادر ، وتشير إلى قصة ابنته الأسطورية [٥] ؛ لأن العرب خرجوا فاتحين ومجاهدين لإعلاء كلمة الحق ، ونشر الدين الإسلامي أولاً ، ولم يكن فتحهم بسبب غضبة رجل كائناً من كان ذلك الرجل [٦] ، ثم إن الضرورة العسكرية والدفاعية لتأمين الفتح العربي الإسلامي للمغرب ، ولاسيما منطقة المضيق حتّمت الفتح ، إذ من المحتمل أن

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٥ ، وينظر الدولة العربية في أسبانيا لبيضون ص٦٨.

(٢) الكامل لابن الأثير ٥٦١/٤ ، نهاية الأرب للنويري ٢٢/ق٢٠٣/٢ ، العبر لابن خلدون ٢١١/٦ .

(٣) البيان المغرب لابن عذارى ٤٢/١ ، العبر ١١٧/٤ ، ٢١١/٦ ، الاستقصا ٩٦/١.

(٤) لقد اختلفت الروايات في طبيعة هذا الاتصال ، فقد ذكرت الأولى منها أنه جرى بالمراسلة بين موسى ويوليان ، ينظر البيان المغرب لابن عذارى ٥/٢ ، وأشارت الثانية إلى أنه قد تم بالمقابلة الشخصية ، ينظر تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ص ٤٤ . البيان المغرب ٥/٢ . نهاية الأرب ٢٢/ق٢٠٣/٢ . نفح الطيب ٢٣٦/١ ـ ٢٣٧ . وأكدت الثالثة أن الاتصال جرى بين يوليان وطارق ابن زياد في طنجة . ينظر وصف الأندلس لابن الشباط ص١٣٤ ، وعلى الرغم من الاختلاف في هذه الروايات فهي ليست متناقضة ، ويبدو أن يوليان قد فاوض موسى بن نصير ، وعندما عاد إلى القيروان استكمل مفاوضاته مع طارق بن زياد في طنجة بتخويل من القائد الأعلى موسى بن نصير ، ينظر طارق بن زياد لخطاب ص١٨ .

(٥) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص٢٠٥ . تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص٨ . تاريخ الأندلس ص٤٤ . الكامل ٢٥٦/٤ . المعجب ص٢٠ ـ ٢١ . البيان المغرب ٧/٢ . نهاية الأرب ٢٢/ق٢٠٣/٢ . الاستقصا ٩٧/١ ، ٩٨.

(٦) العرب والإسلام لفروخ ص٨٠ .

لا تسلم مدينتا سبتة وطنجة المهمتان من أي هجوم محتمل ـ وفي أي وقت ـ يشنه القوط ، لذا فمن المؤكد أن فتح شبه جزيرة إيبريا جاء نتيجة طبيعية ، وضرورة حتمية لاستمرار حركة الفتح في المغرب ، وبخاصة بعد أن تمكن العرب المسلمون من كسب ثقة السكان المحليين الذين دخلوا في الإسلام ، واطلعوا على جوهر الرسالة الإسلامية ، وأخذوا يتقربون إلى العرب الفاتحين ، فاندمجوا معهم والتحقوا بصفوف جيشهم ، فضاق المجال المغربي بهذه القوة العسكرية الضاربة، وأصبح من الضروري دفع هذه الجموع المتحمسة للجهاد إلى ميدان جديد لإشباع الجانب الروحي فيها ، ولمد السيادة العربية خارج المغرب ؛ فكانت شبه جزيرة إيبريا هي المجال الحيوي للفتح .

وقد برز من السكان المحليين عدد من القادة الكبار من أمثال طارق بن زياد ، الذي اعتمد عليه موسى بن نصير ، وجعله قائداً للحامية العسكرية في طنجة . ويبدو أنه كان من الصعب على طارق بن زياد الذي يقود مثل هذه القوة المنظمة أن يقاوم فكرة عبور المضيق إلى شبه جزيرة إيبريا ، وخاصة أن مناطق الجنوب كانت صحراوية لا تشجع على التوغل فيها ، فضلاً عن أن هؤلاء الجنود من القبائل المغربية كانوا على علم تام بأهمية العلاقات بين المغرب وشبه جزيرة إيبريا ، إذ كانوا على اتصال دائم مع سواحلها الجنوبية لقربها منهم ، وكانوا أيضاً بلا شك يعلمون عن خصبها وغناها ، وعن طبيعة مشكلاتها الاجتماعية والسياسية ، وضعف دولة القوط الغربيين فيها(١) .

ومن خلال ما تقدم ، فإن طبيعة الموقف على جانبي المضيق في العقد الأخير من القرن الأول الهجري ـ بداية القرن الثامن الميلادي ـ كانت تؤكد ضرورة التقدم والإسراع في عملية الفتح العربي لشبه جزيرة إيبريا .

---

(١) الفتح والاستقرار لطه ص١٦١ ، المغرب الاسلامي لنقبال ص٩٠ ـ ٩٣ ، وينظر
Apolitical History of Muslim Spain , S.M. Imamuddin , P.26.

وقبل أن يبدأ طارق بن زياد بالفتح ، اتصل بالقائد الأعلى موسى بن نصير في القيروان، واتصل موسى بدوره بالخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ/ ٧٠٥ ـ ٧١٥م) ليعلمه بما عرض عليه يوليان ، وليستأذنه في الفتح ، ويستأنس برأيه ويأخذ بمشورته ، وقد رد عليه الوليد بالموافقة شرط أن تختبر المنطقة بالسرايا ، وأن لا يغرر بجيش المسلمين في ركوب بحر متسع شديد الأهوال(١). فكتب إليه موسى يهون له الأمر ، ويؤكد سهولة عملية عبور جيش المسلمين بقوله : « إنه ليس ببحر ، وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر »(٢)، ولكن خوف الوليد على جيش المسلمين جعله يصر على اختبار المنطقة بالسرايا بقوله : « وإن كان فاختبره بالسرايا »(٣).

وقام طارق بن زياد وبإيعاز من القائد الأعلى موسى بن نصير ، بسبب موقعه السوقي الممتاز على المضيق في رمضان من السنة ٩١هـ/آب ـ أيلول ٧١٠ م ، بإرسال حملة استطلاعية بقيادة أبي زرعة طريف بن مالك المعافري ، الذي عبر المضيق مع أربعمائة راجل ومائة فارس ، على متن أربعة مراكب هيأها يوليان ، ونزلت على الشاطئ في منتصف المضيق في مكان أطلق عليه اسم قائد الحملة طريف (Tarifa) ، ومن هذا المكان قام طريف وجنده ، وبتوجيه يوليان ومساعدته ، بشن غارات سريعة امتدت حتى الجزيرة الخضراء(٤).

---

(١) أخبار مجموعة ص١٦ . تاريخ الأندلس ص٤٥ . نهاية الأرب ٢٢/ق٢/٢٠٣.

(٢) أخبار مجموعة ص١٦ . وقد ورد مضمون النص نفسه مع شيء من الاختلاف في المفردات عند ابن الأثير في الكامل ٥٦١/٤ . نفح الطيب ٢٣٧/١.

(٣) أخبار مجموعة ص ١٦.

(٤)أخبار مجموعة ص١٦ ـ ١٧ . فتح الأندلس لمؤلف مجهول ص٥ . تاريخ الأندلس ص٤٥ (ويذكر عدد أفراد الحملة ثلاثة آلاف راجل) . الكامل ٥٦١/٤ . البيان المغرب ٥/٢ . نهاية الأرب ٢٢/ق٢/٢٠٣ . نفح الطيب ٢٣٧/١ . إفريقيا لمارمول ١٦٩/١. (ويذكر بأن يوليان كان بمعية السرية واستعان بأقاربه وأصدقائه الموجودين على الساحل الإيبري للمضيق وطلب منهم أن يقدموا العون والمساعدة عند مجيئهم في العام التالي بجيش أكبر) .

وقد تكللت جهود هذه الحملة بالنجاح مما شجع طارقاً على المضي في عملية الفتح لشبه الجزيرة ، إذ عاد يوليان ثانية بطلبه إلى موسى بن نصير بالإسراع بعملية الفتح معلماً إياه بما كان منه ومن طريف من فعل وبلاء ، فدعا عند ذلك مولاه طارق بن زياد وعقد له على فتح شبه الجزيرة[١].

وفي العام التالي من رجب ٩٢ هـ/نيسان ٧١١م ، قاد طارق بن زياد بنفسه حملة إلى شبه الجزيرة ، شكل أفراد القبائل المغربية غالبية رجالها[٢] ، وقد شارك في الحملة أيضاً يوليان ، وعدد من رجاله بوصفهم أدلاء للمسلمين يتجسسون لهم الأخبار ويدلونهم على مواطن الضعف[٣] ، وقد عبر طارق بسبعة آلاف من الجند ، ثم أمده موسى بن نصير بخمسة آلاف جندي قبيل المعركة[٤] ، وقد تمت عملية العبور تباعاً من مدينة سبتة[٥] على متون أربع سفن تجارية ، هيأها يوليان ؛ لأنه أراد أن يحيط عملية عبوره بالسرية التامة ، وقد أكد لنا ذلك عدد من مؤرخينا القدامى بالقول : « فجعل (طارق) أليان يحمل البربر في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس ، ولا يشعر بهم أهل الأندلس ، ولا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت تختلف به من منافعهم ومعايشهم ومتاجرهم ، فجعل ينقلهم فوجاً فوجاً إلى ساحل الأندلس . . . »[٦].

---

(١) تاريخ الأندلس ص٤٦ . نفح الطيب للمقري ٢٣٨/١ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبري ٤٦٨/٦ . فتح الأندلس ص٩. وصف الأندلس لابن الشباط ص١٣٤. تاريخ الأندلس ص٤٦ . الكامل ٥٥٦/٤ . البيان المغرب ٦/٢ . نفح الطيب ٢٣٨/١ . الاستقصا ٩٨/١.

(٣) أخبار مجموعة ص١٧ . تاريخ الأندلس ص٤٦ . نفح الطيب ٢١٦/١ . القوى البحرية والتجارية للويس ص ١٠٢ .

(٤) أخبار مجموعة ص١٧ . الكامل ٥٦١/٤ ـ ٥٦٢ . نفح الطيب ٢١٦/١.

(٥) فتوح مصر وأخبارها ص٢٠٥ . فتح الأندلس ص٥ . تاريخ الأندلس ص٤٦ . الاستقصا ٩٨/١ . اللسان المعرب للسليماني ص٣٨ .

(٦) تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ص٧٤ . وقد ورد مضمون النص نفسه مع شيء من الاختلاف في المفردات عند ابن عذاري . البيان المغرب ٦/٢ . نفح الطيب ٢٣٨/١.

ومن الجدير بالذكر أن معظم مصادرنا القديمة تشير إلى حملة جبل طارق باقتضاب شديد ، فهي تذكر أن طارقاً قد نزل في الجبل المنسوب إليه دون أن يلقى مقاومة[١] ، وهذه الرواية تبدو بعيدة عن الصواب لأن هذا الجبل يمثل موقعاً سوقياً مهماً منذ أقدم العصور[٢] ، فهو واحد من نقاط الاتصال بين المغرب وشبه الجزيرة ، والمتحكم في المضيق ضد أي هجوم على شبه الجزيرة من ناحية المغرب ، ولا ريب في أن القوط في أواخر أيامهم كانوا على علم بتطور الأحداث على الجانب المغربي من المضيق وتنامي قوة العرب المسلمين هناك ، فضلاً عن أن الحملات الاستطلاعية التي شنها كل من يوليان وطريف[٣] قد نبهتهم على خطر قوة العرب المسلمين ، إذ كانت بمثابة إنذار لهم كي يأخذوا حذرهم وحيطتهم لأي هجوم متوقع ، فقد عهد الملك لذريق (Rodric)

(١) فتوح مصر وأخبارها ص٢٠٦ . أخبار مجموعة ص١٧ . وصف الأندلس ص١٣٤. الكامل ٤/٥٦١ ـ ٥٦٢. نهاية الأرب ٢٢/ق٢/٣٠٤ . العبر ٤/١١٧ . الاستقصا ١/٩٨ . اللسان المغرب ص٣٨ .

(٢) لقد أدرك الفينيقيون أهمية هذا الموقع من الناحية السوقية والاقتصادية ، لذلك أقاموا عاصمة ثانية لهم في مدينة قادس وراء أعمدة هرقل ، وأحكموا سيطرتهم على الممر الضيق في جبل طارق ، لمنع الإغريق من مشاركتهم في التجارة المربحة ، وعندما جاء الرومان ، عقد القرطاجيون اتفاقية مع روما تقضي بمنعهم من المرور عبر مضيق جبل طارق لكي لا يعرفوا شيئاً عن تجارتهم المربحة مع البريطانيين ، تجارة التنك والرصاص ، كما أنهم عمدوا إلى رمي الاجانب الذين يقتربون من المضيق في البحر ، ولم يترددوا في إغراق أية سفينة تحاول عبور المضيق ، فقد عمد أحد الربانة القرطاجنيين إلى الانتحار بإغراق سفينة رومانية كانت قد تجاوزت مضيق جبل طارق عن طريق التصادم معها وإغراق السفينتين ، ومن هنا فقد حرصت جميع الأقوام التي حكمت شبه الجزيرة على بسط نفوذها على مضيق جبل طارق واتخذت من جبل طارق قاعدة عسكرية لتحقيق هذا الغرض .

ينظر :

The Golden Trade of the Moors E.W. Bovill , P. 19-24 .

(٣) أخبار مجموعة ص١٦ ـ ١٧ . فتح الأندلس ص٥ . تاريخ الأندلس ص٤٥ . الكامل ٤/٥٦١ . البيان المغرب ٢/٥ . نهاية الأرب ، ٢٢/ق٢/ ٢٠٣ . نفح الطيب ١/ ٢٣٧ . إفريقيا ١/ ١٦٩ .

إلى القائد القوطي تدمير (Theodemir) بمسؤولية الدفاع عن هذه المنطقة[١]، وربما كانوا على علم بنوايا المسلمين وخططهم في الفتح ، لأن عرض مضيق جبل طارق في أضيق جهاته يقرب من أربعة عشر كيلو متراً ، وهذه مسافة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري بين الساحلين المغربي والإيبيري ، إذاً لابد من أن القوط ـ مهما بلغ ضعفهم ـ لم يهملوا هذه القاعدة السوقية ، ويتركوها من دون حراسة ومراقبة[٢].

لهذا لم يكن نزول طارق عند الجبل بهذه السهولة التي صورتها لنا عدد من مصادرنا التاريخية ، بل لابد من أنه قد جابه مقاومة عنيفة دفعته إلى تغيير خطته العسكرية ، والنزول بجيشه ليلاً في مكان آخر صخري ووعر ، مستخدمين براذع الدواب ومجاذف السفن ، كي تعينهم على خوض المياه ، وارتقاء الصخور بغية الالتفاف حول العدو ، والانقضاض عليه قبل أن يشعر بهم ، وقد أكد ذلك ما جاء به ابن الكردبوس في وصفه لعملية النزول بقوله : « فمضى (طارق) لسبتة ، وجاز في مراكبه إلى الجبل . . . فسُمي جبل طارق باسمه إلى الآن ، وذلك سنة اثنتين وتسعين من الهجرة ، ووجد بعض الروم وقوفاً في موضع وعر فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب ونزل في البر وهم لا يعلمون ، فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم »[٣].

وعلى الرغم من أن هذه المعركة كانت محدودة بيد أنها كانت على جانب كبير من الأهمية العسكرية إذ قررت نجاح عملية الفتح والسيطرة على موضع قدم للجيش العابر من المغرب إلى شبه الجزيرة ، ومكنته من ضمان الاتصال مع خطوطه الخلفية في المغرب ، كما أنها بثت الرعب في قلوب القوات القوطية التي انهزمت مذعورة لتنقل أخبار هزيمتها إلى

---

(١) الإمامة والسياسة للدينوري ص١٢١ ـ ١٢٢ . الفتح والاستقرار لطه ص ١٦٥.

(٢) في تاريخ المغرب والأندلس ص٦٠ ـ ٦١.

(٣) تاريخ الأندلس ص٤٦ . وينظر ايضاً : البيان المغرب ٢/ ٩ (حيث ترد بعض عبارات هذا النص) .

الملك لذريق على لسان أحد أفرادها الذي قال بأن قوات لا قبل لهم بها قد هاجمتهم ، وهو لا يعلم أهي هبطت من السماء أم طلعت عليهم من باطن الأرض [١].

ثم قام طارق وقواته بتحصين موقعهم في الجبل ببناء سور حولهم سمي بسور العرب [٢] ، وقد أثار عدد من المستشرقين والمؤرخين العرب شكوكاً حول بناء هذا السور وبنوا شكوكهم على أساس أن طارقاً لم ينو البقاء مدة طويلة في الجبل لأن هدفه هو فتح المناطق المجاورة للجبل كالجزيرة الخضراء وغيرها [٣] ، واعتمدوا في ذلك على قول ابن الأثير : « نزل [طارق] من الجبل إلى الصحراء وافتتح الجزيرة الخضراء وغيرها وفارق الحصن الذي في الجبل » [٤].

ويبدو أن هؤلاء المؤرخين قد اختلط عليهم الأمر في المعنى العسكري الدقيق لمفهوم التحصين ، والذي يعني أنه من واجب كل مقاتل أن يحصن موقعه ، حتى لو كان وقتياً ، ومن المواد المتيسرة في الموقع [٥] ، إذ إن من واجب القائد وجنده أن لا يغفلوا عن تحصين مواقعهم تحسباً واستعداداً لأي هجوم محتمل ، والسور الذي بناه طارق لا يعني إقامة الحصون المشيدة ـ كما فهمه هؤلاء المؤرخون ـ بل هو بمثابة جدار تمت إقامته من الصخور والأحجار الموجودة في الجبل كي يحتمي وراءه المقاتلون من كل خطر محتمل [٦].

وبعد أن أمّن طارق موقعه في الجبل ، أرسل كتيبة من المقاتلين الأشداء تحت قيادة

---

(١) الإمامة والسياسة ص١٢١ ـ ١٢٢ . نفح الطيب ٢٢٥/١ .

(٢) البيان المغرب ٩/٢ . العبر ١١٧/٤.

(٣) الطيبي ، بحوث ودراسات ص٢٩٦ .

The Early Islamic Settleman in Gibralter , H.T Norris , pp. 62-63.

(٤) الكامل ٥٦٢/٤.

(٥) قاموس المصطلحات العسكرية لأمين ص٨٦ .

(٦) طارق بن زياد ص٢٩ ـ ٣٠.

أحد قادته ـ وهو عبد الرحمن بن أبي عامر المعافري ـ لفتح حصن قرطاجة الواقع إلى الشمال الغربي من الجبل ويدعى الآن بـ (Tone de Cartagema)[١].

ثم توجه بعد ذلك لفتح الجزيرة الخضراء المجاورة للجبل وإحكام السيطرة عليها[٢]، واستخدامها قاعدة عسكرية لحماية ظهره في حالة الانسحاب ، بوصفها أسهل وأقرب نقطة للاتصال بقاعدة سبتة على الساحل المغربي ، وفي الوقت نفسه يصعب اتصالها بشبه الجزيرة ، لوجود حاجز من المرتفعات بينهما ، وأقام قاعدة أمامية في جزيرة طريف بقيادة طريف بن مالك المعافري[٣]. وبذلك حقق هدفه في السيطرة على الساحل الإيبيري على المضيق وضمن السّيطرة الكاملة على منافذ العبور بين الساحلين للمضيق ، وسهّل العبور والاتصال ، ووصول الإمدادات المادية والبشرية دون تعرضها لأي خطر ، وفي الوقت نفسه أمن حماية مؤخرة القوات الموجودة في الجانب الإيبيري .

وبعد أن أحكم سيطرته على المضيق بكامله ، وأمن خطوط مواصلاته ، بدأ في تحقيق أهدافه في الفتح ، إذ وصل زحفه نحو كورة شذونة (Sidonia) في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة ، متخذاً المرتفعات الجنوبية الساحلية مصداً وحامياً له من الشمال ، كما اتخذ الجزيرة الخضراء وطريفاً قاعدتين لحماية مؤخرة جيشه ، ومن طريف تابع تقدمه حتى وصل إلى بحيرة الخندق لاخاندا (Laguna dela Janda) وعسكر هناك واتخذها حاجزاً بينه وبين العدو ، فجعلها على جهته اليمنى ، والبحر على جهته اليسرى ، في حين جعل الطريق بينه وبين طريف والجزيرة الخضراء مفتوحاً من جهة الجنوب لإيصال الإمدادات ، تحسباً لكل الظروف التي قد تضطره إلى الانسحاب والتراجع[٤].

(١) ذكر بلاد الأندلس ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ، البيان المغرب ٢/٩، ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) البيان المغرب ٢/٢٥٧ .

(٣) نفح الطيب ١/٢١٧ ـ ٢١٨ .

(٤) في تاريخ المغرب والأندلس ص٦٨ ـ ٦٩ ، دراسات في التاريخ الأندلسي لطه ص٢٣ .

وعندما وصلت أنباء زحف طارق بن زياد إلى الملك لذريق الذي كان مشغولاً في القضاء على إحدى تمردات الباسك أو البشكنس (Basques) في الشمال الشرقي ، كان من الصعوبة سحب قواته ونقلها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب حيث ميدان العمليات العسكرية لأنه يحتاج إلى وقت طويل ، لذا فقد قرر على وجه السرعة إرسال قوات تحت قيادة ابن أخته المدعو بنج (Banj) لمنع تقدم قوات المسلمين وإجلائهم عن المناطق التي فتحوها جنوباً ، لحين وصوله بقواته الكبيرة ، والتقى بنج بجيش المسلمين ، وتمكن طارق من دحر قواته وقتله ، وكان لهذا الانتصار أثر كبير في رفع معنويات المسلمين ، وإكمال عملية الفتح الكبرى[١] .

وسارع لذريق بجيشه الكبير الذي بلغ تعداده ما بين أربعين إلى مائة ألف مقاتل[٢] ، وهذا العدد كما يبدو مبالغ فيه ، وعندما علم طارق بن زياد بهذه الحشود الضخمة كتب إلى موسى بن نصير بالفتح طالباً منه النجدة وقد صور لنا ذلك صاحب أخبار مجموعة بقوله : « كتب (طارق) إلى موسى يستمده ويخبره أن قد فتح الله الجزيرة واستولوا عليها وعلى البحيرة ، وأنه قد زحف إليه ملك الأندلس بما لا طاقة له به ، وكان موسى مذ وجه طارقاً أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل إليه خمسة آلاف . . . »[٣] ، وقد عبرت هذه القوات بكل سهولة وأمان نظراً لسيطرة قوات المسلمين على ساحلي المضيق .

وتجمع مصادرنا على أن المعركة الفاصلة التي دارت بين القوط الغربيين والجيش العربي الإسلامي كانت في كورة شذونة (Sidonia) ، ولكنها اختلفت في المكان المحدد

(١) البيان المغرب ٢/٨ .

(٢) أخبار مجموعة ص١٧ . تاريخ الأندلس ص٤٧ . الكامل ٤/٥٦٢ . العبر ٤/١١٧ . نفح الطيب ١/٢٤١ .

(٣) أخبار مجموعة ص١٧ . وينظر : الكامل ٤/٥٦٢ . نفح الطيب ١/٢٥٧ (حيث ورد عندهما نفس النص مع بعض الاختلاف في المفردات) .

ضمن هذه الكورة ، لذا فقد جاءت هذه المعركة بأسماء عديدة منها معركة وادي لكة أو بكة ، وادي شريش ، وادي البرباط ، معركة البحيرة ، السواقي ، السؤاني[١] .

إن هذه المعركة التي توقف عليها مصير شبه الجزيرة في يد العرب المسلمين كانت أكبر وأعظم من أن تحدد بمثل هذه الأماكن الضيقة والمحددة ، فهي معركة كورة شذونة بأسرها ، وإن اقتران تسمية المعركة بهذه الأماكن ما هو إلا دليل على كبر حجمها بحيث غطت مناطق كثيرة من كورة شذونة . ومما يؤيد هذا الرأي أن بقية المعارك التي حدثت بين المسلمين والقوط الغربيين ما كانت إلا مناوشات خفيفة موازنة بهذه المعركة الفاصلة[٢] ، وقد دامت هذه المعركة ثمانية أيام (٢٨ رمضان ـ ٥ شوال ٩٢هـ / ١٩ ـ ٢٦ تموز ٧١١ م)[٣] ، وهذا دليل على مدى شدتها وضراوتها ، وكانت نتيجتها أن انهزم القوط وتكبدوا خسائر فادحة ، أما عن مصير لذريق فلم يكن معروفاً إذ لم يعثر عليه ، ومن المحتمل أنه قد غرق في أحد المستنقعات[٤] ، وبعد انتهاء المعركة كتب طارق بن زياد إلى موسى بن نصير بالفتح ، وكتب موسى بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك[٥] .

وكان من نتائج هذه المعركة ، أنه ما كادت تصل أخبار انتصار جيش طارق بن زياد على القوط إلى أسماع العرب المسلمين في المغرب ، حتى تسارعوا إلى عبور المضيق ،

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ص٢٠٦ . أخبار مجموعة ص١٨ . وصف الأندلس لابن الشباط ص١٣٤ . الكامل ٥٦٢/٤ . الحلة السيراء لابن الابار ٣٣٣/٢ . البيان المغرب ٨/٢ . العبر ١١٧/٤ . نفح الطيب ٢٤٢/١ .

(٢) في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي ص٧٢ . دراسات أندلسية ص٢٥ .

(٣) الحلة السيراء ٣٣٣/٢ . البيان المغرب ٨/٢ . نفح الطيب ٢٤٣/١ .

(٤) أخبار مجموعة ص١٨ ـ ١٩ . وصف الأندلس ص١٣٤ ـ ١٣٥ . بلاد الأندلس ص٩٩ . البيان المغرب ٨/٢ . نفح الطيب ٢٤٢/١ ـ ٢٤٣ .

(٥) تاريخ الأندلس ص٤٨ .

ومن هنا يتبين بأن المضيق أصبح منطقة تخضع في سيادتها إلى الدولة العربية الإسلامية ، الأمر الذي جعلها معبراً طبيعياً أميناً يقصده كل من يريد الانتقال بين الجهتين ، وفي ذلك توضيح لما ذكره المقري بقوله : « وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال »(١) .

كما قضت هذه المعركة على قوة القوط الرئيسة ، وكسرت شوكتهم ، وفتحت أبواب شبه الجزيرة للمسلمين ، ومهدت الطريق للعمليات العسكرية التالية التي كان أغلبها يمثل ملاحقة لفلول العدو المنهزمة إلى حاميات المدن الأخرى لإنهاء مقاومتهم .

وبعد النجاح الكبير الذي حققه طارق بن زياد في شبه الجزيرة ، قرر موسى بن نصير أن يلحق به بجيش آخر ، ويشاركه في عملية الفتح ويطلع بنفسه على سير العمليات الحربية هناك ، فأبحر من مرسى موسى الواقع بالقرب من قرية بليونش التي تبعد عن سبتة مسافة ثمانية كيلومترات ، ونزل عند ساحل الجزيرة الخضراء(٢) . وكان سبب اختيار موسى بن نصير لمرسى موسى نقطة لانطلاقه ، أنها أصبحت مأمونة الجانب كغيرها من مناطق الساحل المغربي للمضيق ، كما أنها تعد أقرب نقطة إلى الجزيرة الخضراء التي أصبحت تعد قاعدة عسكرية أولية للقوات العربية الإسلامية بعد عبورها المضيق ، تستطيع من خلالها أن تستكمل عدتها وتعيد تنظيماتها بما يؤهلها لأداء واجبها العسكري المكلفة به .

وتبرز أهمية المضيق بعد إحكام سيطرة العرب المسلمين على جانبيه في عملية عبور

---

(١) نفح الطيب ٢٤٣/١ .

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس ص٩ . فتح الأندلس ص١٣ . الرسالة الشريفية لمؤلف مجهول ص١٩٨ . نفح الطيب ٢٥٢/١ . الاستقصا ٩٩/١ .

حملة موسى بن نصير ، إذ لا بد من أنها قد تمت في ظل وضع أمين ومستقر ، وبكل سهولة ويسر ، لهذا فقد جاءت مختلفة عن حملة طارق بن زياد التي قد اتسمت بالكتمان والسرية ، وتمت في ظل ظروف صعبة وخطرة .

وكان دخول موسى بن نصير لشبه جزيرة إيبريا في رمضان من السنة ٩٣ هـ / حزيران ـ تموز ٧١٢ م[١] . وفي أثناء وجوده في الجزيرة الخضراء أمر ببناء الحجر الأساس لأول مسجد هناك سمي بمسجد الرايات[٢] .

وفي العام (٩٥ هـ / ٧١٤ م) جاء أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك ، القاضي بوقف العمليات العسكرية والعودة إلى دمشق ، ويتضح من الرواية التي ذكرت عودة القائدين وإبحارهما من إشبيلية (Seviella)[٣] أنهما سلكا طريق الوادي الكبير المؤدي إلى الجهة الشمالية الغربية من المضيق ، وهذا يبين لنا بأنه حتى هذه الجهة المتطرفة من المضيق أصبحت تحت سيادة العرب المسلمين ، ومن ثم باتت مأمونة الجانب .

ثانياً : المضيق على عصر الولاية (٩٥ ـ ١٣٨ هـ / ٧١٤ ـ ٧٥٥ م) :

قبل مغادرة موسى بن نصير الأندلس ، ترك ولده عبد العزيز والياً عليها ، واختار له مدينة إشبيلية عاصمة للبلاد لقربها من المضيق[٤] ، وهذا يعني أنه كان يهدف من وراء ذلك أن يجعله على اتصال دائم ومستمر بالمغرب ، ولا سيما في حالة تعرض العرب المسلمين في الأندلس لأي خطر محتمل ، وهذا دليل واضح على أهمية المضيق في ربط البلدين .

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس ص٩ . أخبار مجموعة ص٢٤ . فتح الأندلس ص١٠ . الرسالة الشريفية ص١٩٣ . وصف الأندلس ص١٤٥. البيان المغرب ١٢/٢ . نفح الطيب ٢٥٢/١ .

(٢) فتح الأندلس ص١٣ . الرسالة الشريفية ص١٩٨ .

(٣) فتح الأندلس ص١٧ . الرسالة الشريفية ص٢١٠ .

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس ص١٠ . أخبار مجموعة ص٢٧ . الرسالة الشريفية ص٢١٠ . نفح الطيب ٢٥٨/١ .

وبهذا أصبحت الأندلس ولاية عربية تابعة للخلافة الأموية بدمشق يحكمها والٍ يعرف بالأمير يتبع أمير إفريقية من الناحية الإدارية ، وقد عرف هذا العصر في التاريخ الأندلسي بعصر الولاية الذي استمر حتى قيام الإمارة الأموية في السنة ١٣٨هـ/٧٥٥ م .

وفي هذا العصر خيم الصمت ولمدة ربع قرن من الزمن على مضيق جبل طارق ، وهذا الصمت لا يعد سلبياً بل هو صمت إيجابي ، لأن المضيق أصبح عربياً وهادئاً ولا يوجد ما يعكر صفوه على الجانبين . ولكن أهمية المضيق تظهر من جديد في إحداث الفتن والاضطرابات الداخلية في المغرب ، وانتقال صداها وتأثيرها عبر المضيق إلى الأندلس ، ففي السنة ١٢٢هـ/٧٤٠ م ، تمرد السكان المحليون على والي القيروان عبيد الله بن الحبحاب (١١٦ - ١٢٣ هـ / ٧٣٤ - ٧٤١ م)[١]، وقد قاد حركتهم (ميسرة المطغري)[٢] في أطراف طنجة ، وعلى ما يبدو فإن اختيار أحواز طنجة منطلقاً لهذه الحركة يعود إلى سببين :

الأول : أنها موقع متطرف على المضيق ، ومنطقة نائية عن سلطة والي المغرب الذي يقع مقره في القيروان .

الآخر : أن هذه المنطقة كانت توفر حماية للمتمردين من خلال وجود سلسلة جبال غمارة [٣].

---

(١) تتلخص أسباب هذا التمرد - كما يشير اليه قسم من المصادر التاريخية - في سوء معاملة عدد من ولاة المغرب للسكان المحليين ، وانتشار المذهب الخارجي بينهم واعتناق مبادئه . ينظر : أخبار مجموعة ص٣٤ . البيان المغرب ١/٥١-٥٢ . الاستقصا ١/١٠٦-١٠٧ . ويقارن : مجمل تاريخ المغرب للعروي ص١٣١-١٣٢.

(٢) هو ميسرة المدغري أو المطغري نسبه إلى قبيلة مطغرة ، وقد عرف بالفقير وبالحقير ، اشتغل ببيع الماء في سوق القيروان تمويهاً منه ، وقيل إنه كان شيخاً لقبيلة مطغرة ، اعتنق مبدأ الخوارج ، فنصب نفسه إماماً وتسمى بالخلافة .

ينظر : تاريخ افتتاح الأندلس ص١٤ . فتوح مصر وأخبارها ص٢١٨ . تاريخ خليفة بن خياط ٢/٥٢٥ . المغرب ص١٣٥ . البيان المغرب ١/٥٢ . نهاية الأثير ٢٢/ق٢/٢١٤ . الاستقصا ١/١٨٠ .

(٣) العبر ٦/٢١٠ .

وقد تمكن أتباع ميسرة من قتل حاكم طنجة (عمر بن عبد الله المرادي) والسيطرة عليها ، وقد استاء ابن الحبحاب من هذه الأخبار ، وسارع بإرسال جيش ضم وجوهاً عربية من قريش والأنصار وغيرهم ، تحت قيادة خالد بن حبيب الفهري ، وفي الوقت نفسه كتب إلى حبيب بن أبي عبيدة يأمره بالرجوع من صقلية ليشارك خالداً في القضاء على حركة المتمردين في طنجة ، وعندما سمع ميسرة ، خرج بجموعه ولاقاهم عند وادي شلف بالقرب من تيهرت ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم انسحب ميسرة إلى طنجة دون الإشارة إلى أسباب ذلك ، ثم قام أتباعه بعزله عن منصبه بوصفه خليفة ، وقتله بسبب سوء سيرته[1]. وَلكن من المحتمل أن يكون مقتل ميسرة قد حدث بسبب عدم رغبة قسم من المتمردين بالانفصال التام عن الحكم العربي ، ومما يدعم هذا الرأي امتناع المتمردين عن تنصيب خلفه المختار خالد بن حميد الزناتي خليفة لهم[2]، وقد تمكن زعيمهم الجديد ودخل بجموعه الكثيرة في قتال مع خالد بن حبيب الذي لم يستطع الصمود ومني بهزيمة ساحقة أودت بحياته وحياة عدد كبير من جيشه ، وسميت تلك المعركة بغزوة الأشراف[3].

وتشير حولية العام ٧٥٤م إلى أن عامل الأندلس عقبة بن الحجاج أسرع لنجدة والي المغرب في القضاء على التمرد ، وذلك بعد أن تلقى منه رسائل بشأن حركة السكان المحليين فعبر المضيق وهاجم مواقع المتمردين[4].

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ص٢١٧ - ٢١٨ . الكامل ١٩١/٥ . البيان المغرب ٥٣/١ . الاستقصا ١٠٥/١ - ١٠٩ .

(٢) يقارن : الفتح والاستقرار لطه ص٣٥٩ .

(٣) فتوح مصر وأخبارها ص٢١٨ . تاريخ خليفة بن خياط ٥٢٦/٢ . الكامل ١٩٢/٥ . البيان المغرب ٥٤/١ . الاستقصا ١٠٩/١ .

(٤) The chronicle of 754 / sidoro pacense , pp. 157. 158 .
ملحق رقم ٧ لكتاب أخبار مجموعة ، ص١٤٦ - ١٦٢ . نقلاً عن الفتح والاستقرار ص٣٥٩ .

ولكن هذه الرواية بعيدة الاحتمال ، إذ لم يرد لها ذكر في مصادرنا التاريخية ، فضلاً عن أن الأحوال في الأندلس آنذاك لم تكن بأحسن مما كانت عليه في المغرب ، إذ ما إن سمع أهل الأندلس بحركة المتمردين في المغرب بحكم قرب البلدين حتى وثبوا على أميرهم عقبة بن الحجاج وعزلوه وولوا عبد الملك بن قطن[١] .

وعندما وصلت أخبار هذه الكارثة إلى دمشق أصدر الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ/٧٢٤ - ٧٤٣م) قراراً بعزل عبيد الله بن الحبحاب في العام ١٢٣هـ/٧٤٠م ، وتعيين كلثوم بن عياض ، فسار على رأس جيش كبير يتقدم طلائعه ابن أخيه بلج بن بشر القشيري ، وفي أثناء مسيرته انضم إلى جيشه جند من مصر وإفريقية فسار بهم جميعاً إلى طنجة ، ثم تلقاه المتمردون عند قرية (بقدوره) الواقعة على نهر سبو ، ودارت معركة كبيرة كانت نتيجتها مقتل القائد كلثوم ، وهزيمة الجيش العربي وتشتيته ، فمن نجا من جند إفريقية فر هارباً إليها ، في حين توجه بلج بمن بقي من فرقته إلى سبتة معتصماً هناك . ومما يفسر الأسباب التي دفعت « بلجاً » إلى اختيار سبتة انها كانت مدينة حصينة من الصعب اختراقها إلا عن طريق البحر ، وهذا ما عكسه عجز قوات المتمردين بزعامة خالد الزناتي عن اقتحامها والقضاء على بقايا القوات العربية المتحصنة فيها . فضلاً عن أن اختيار بلج كان واقعياً ، لأنه أراد أن يؤمن سبيل نجدته وانتقاله إلى الأندلس من المكان الطبيعي للعبور إلى الجهة الثانية من المضيق .

ولهذا عندما يئس المتمردون من اقتحام سبتة ، عمدوا إلى نسف مزارعها وتخريبها ، فأقفرت الأرض حول سبتة ، فجاعوا حتى أكلوا دوابهم ، وجلود الحيوانات وأشرفوا على الهلاك ، وقد حاول بلج التخلص من هذا الحصار بعبوره المضيق من سبتة إلى الأندلس ، وكتب بذلك مرات إلى أميرها عبد الملك بن قطن يطلب منه

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس ص١٤ . نهاية الأرب ٢٢/ق٢/٢١٥ .

العون والإمدادات ، لكن الأمير تغافل عنه ، وخاف على سلطانه منه ومن جنده الشاميين[١] .

ولكن تغافل عبد الملك بن قطن ورفضه لم يدوما طويلاً ، فقد انقلب الوضع ضده ، وتغيرت الظروف لصالح بلج وجنده ، ولاحت فرصة عبور المضيق ؛ لأن الأندلس كانت مرتبطة بالمغرب ، ومعنية بكل ما يجري على أرضه من أحداث فهي تتأثر به وتنعكس أحداثها عليه ، فقد انتقلت عدوى تمرد القبائل المغربية وربما قسم منهم إلى الأندلس ، وأثاروا إخوانهم ضد السلطة المركزية وبخاصة في المناطق الشمالية في جليقية (Galicia) ، واسترقه (Astorga) ، والمداين (Almadaen) ، لبعدها عن مركز الحكم في قرطبة (Gordoba) ، فقد سيطروا عليها وعدوها مناطق نفوذ لهم ، باستثناء منطقة سرقسطة (Saragossa) ، إذ كان العرب فيها يشكلون قوة كبيرة[٢] .

وقد اختلفت المصادر في قائد التمرد ، منهم من سماه بـ (ابن هذين)[٣] ، أو باسم (زقطرنق)[٤] . ويحتمل أن التمرد قد تولى أمره عدة قيادات خططت بينها من أجل تحقيق هدف واحد ، هو القضاء على السلطة العربية في الأندلس من خلال تحريك ثلاثة جيوش في وقت واحد ، وجهة الأول طليطلة ، والثاني قرطبة ، والثالث - وهو الأكثر أهمية - وجه إلى الجزيرة الخضراء[٥] ، إذ إن من يمتلك الجزيرة الخضراء يكون بمقدوره أن يتحكم بجهتي المضيق ، لأن الجزيرة الخضراء هي المعبر الوحيد المعتمد من الأندلس إلى المغرب

(١) تاريخ افتتاح الأندلس ص١٥ - ١٦ ، أخبار مجموعة ص٣٧ - ٤٢ . فتح الأندلس ص٣٠ - ٣١ . الكامل ١٩٣/٥ ، ٢٥٠ - ٢٥١ . البيان المغرب ٥٦/١ ، ٣٠/٢ - ٣١ .

(٢) أخبار مجموعة ص٤٢ . فتح الأندلس ص٣١ ، البيان المغرب ٣٠/٢ . وينظر :
Apolitical History of Muslim spain S.M. lmamuddin , p. 42 .

(٣) أخبار مجموعة ص٤٣ .

(٤) فتح الأندلس ص٣١ .

(٥) Apolitical History of Muslim spain , S.M. lmamuddin , p. 42

آنذاك ، ومن خلالها تنسق الجهود مع المتمردين في المغرب ، وتحاصر القوة العسكرية برئاسة بلج في سبتة براً وبحراً ويقضي عليها ، ومن ثم يمنع وصول أي عون وإمدادات إلى الأندلس ويحاصرون حصاراً لا خلاص لهم منه .

وقد عجز عبد الملك بن قطن عن قمع تمردهم ، ومنع تقدم قواتهم نحو قرطبة ، فخاف أن يلقى من هؤلاء المتمردين ما لقيه المغرب منهم ، فلم يجد أمامه من سبيل سوى الاتصال ببلج وجنده ، والسماح لهم بعبور المضيق إلى الأندلس ، واشترط عليهم أن يغادروا الأندلس بعد القضاء على حركة المتمردين ، وحدد بقاءهم لمدة سنة ، واشترطوا عليه بدورهم أن يعيدهم إلى إفريقية دفعة واحدة ولا يفرقهم ويعرضهم لخوارج المغرب ، وهذا دليل على سيطرة المتمردين على المضيق ، وحتى يأمن من جانبهم فرض على كل فرقة تسليم عشرة رهائن يحتفظ بها في الجزيرة الخضراء[١]. وأغلب الظن أن اختياره للجزيرة الخضراء كان تلويحاً للجند الشاميين بالالتزام بشروط الاتفاق المبرم بينهم ، وإلا فسيكون مصيرهم هو الموت بإرسالهم عبر المضيق ووضعهم تحت يد قوات المتمردين في الساحل المغربي للمضيق .

وقد تم الاتفاق وأرسلت إليهم السفن ، وعبروا إلى الجزيرة الخضراء واستقبلهم عرب الأندلس وابن قطن ، وأكرموا وفادتهم ، وأجزل لهم العطاء ، ووحدت جهود العرب جميعاً تحت قيادة واحدة مندفعين بكل عزم وإخلاص للقضاء على حركة المتمردين[٢].

ونظراً لخطورة الجيش الثالث للمتمردين ، فقد سارعوا أولاً إلى لقائه في منطقة شذونة من أجل إعاقة تقدمه ومنع وصوله ، واستيلائه على الجزيرة الخضراء ، لمنع أي اتصال بينه وبين متمردي المغرب ، وكانت نتيجة المعركة الهزيمة الساحقة لهذا الجيش ،

---

(١) أخبار مجموعة ص٤٢ ـ ٤٣ . فتح الأندلس ص٣١ . الكامل ٢٥١/٥ . البيان المغرب ٥٦/١ ، ٣٠/٢ ـ ٣١ .

(٢) أخبار مجموعة ص٤٣ ، فتح الأندلس ص٣١ . البيان المغرب ٣١/٢ .

وإضاعة أي أمل في الحصول على عون خارجي لدعم تمردهم[١]، وكان للقضاء على هذا الجيش أثر كبير في تسهيل مهمة محاصرة الجيشين الآخرين والقضاء عليهما ، إذ توجهت القوات العربية بعد ذلك إلى مدينة قرطبة لفك الحصار الذي فرضه الجيش الثاني ، فتمكنوا من إنزال الهزيمة به[٢]، ثم تابعوا المسير نحو طليطلة (Toledo) وقد اجتمع هناك معظم المتمردين وكانت هزيمتهم الكبرى عند (وادي سليط) في احواز طليطلة[٣]، وهكذا تم القضاء على حركة المتمردين في الأندلس قبل أن تأخذ مداها الواسع كما حدث في المغرب .

عادت جميع القوات العربية إلى قرطبة ، وتقدم ابن قطن إلى الشاميين بطلبه ، بمغادرة الأندلس تنفيذاً لاتفاقهم[٤] . فأجابوه إلى ذلك شرط أن يكون عبورهم مجتمعين ، وأن يجهزهم بسفن ليبحروا بها في الجنوب الشرقي من ساحل البيرة (Elviva)، أو تدمير (Tudmir) مرسية (Murcia)، لا من الجزيرة الخضراء خوفاً من ملاقاة متمردي المغرب في سبتة ، فاعتذر ابن قطن بأن ليس له سفن إلا بالجزيرة الخضراء فاتهموه بأنه يريد أن يردهم إلى متمردي المغرب فيقتلوهم في بلادهم[٥].

ومن المرجح أن ادعاء ابن قطن أن ليس له سفن كافية إلا في الجزيرة الخضراء صحيح ، لان هدفه وأمنيته التخلص من الجند الشاميين بتركهم الأندلس سواء عن طريق

(١) فتح الأندلس ص٣١ . الكامل ٢٥٢/٥ . البيان المغرب ٣/٢ . وينظر :
Apolitical of Muslim spain , S.M. lmamuddin , p. 43 .

(٢) فتح الأندلس ص٣١ . البيان المغرب ٣١/٣ . وينظر :
Apolitical History of Muslim spain , S.M. lmamuddin , p. 43 .

(٣) أخبار مجموعة ص٤٤ . فتح الأندلس ص٣١ . البيان المغرب ٣١/٢ .

(٤) فتح الأندلس ص٣٢ . البيان المغرب ٣١/٢ .

(٥) أخبار مجموعة ص٤٤ . فتح الأندلس ص٣٢ . الكامل ٢٥١/٥ . البيان المغرب ٣١/٢ .

ميناء الجزيرة الخضراء او غيرها ، ولولا خطورة الموقف على المضيق ، لقام بنقل سفنه من الجزيرة الخضراء إلى ميناء آخر لنقلهم إلى جهة المغرب ، ولكن خوفه من انتهاز المتمردين على الساحل المغربي للمضيق الفرصة والعبور إلى الأندلس ، جعله يصر على أن يكون عبورهم من الجزيرة الخضراء .

وكان رد فعل الشاميين على إصرار ابن قطن أن انتفضوا عليه واعتقلوه وبايعوا صاحبهم بلجاً الذي استدعى الرهائن من جند الشام في الجزيرة الخضراء . ولما أقبلوا عليه شكوا له حالهم وما عانوه من جوع وعطش ، بسبب إمساك والي الجزيرة الخضراء الطعام والشراب عنهم تضامناً مع ابن قطن ، ونتج عن ذلك موت أحدهم ، وكان رجلاً غسانياً من أشراف الشام ، ويبدو أنه كان يتمتع بمكانة عالية بين قومه ، وقد أغاظ هذا الحدث الشاميين ، وبعث الغضب والاستياء فيهم ، فحملوا ابن قطن مسؤولية ذلك ، وطلبوا من بلج تسليمه لهم ليقوموا بقتله ، وقد حاول بلج تهدئتهم ومنعهم من الإقدام على مثل هذا الفعل لكنه فشل وأجبر على تسليمه وقتل وهو ابن تسعين سنة[١] .

وقد استمر الساحل المغربي من المضيق بيد المتمردين ، لهذا فقد كان وضعه قلقاً وخطراً ، وهذا ما يشير إلى عدم قدرة ولاة الأندلس فيما بعد العبور منه إلى ولايتهم في الأندلس ، فعند تعيين ابن الخطار الكلبي والياً على الأندلس ، ركب البحر في السنة ١٢٥هـ / ٧٠٣م من ناحية تونس وحل بالساحل الجنوبي الشرقي ومنه سار إلى قرطبة[٢] .

---

(١) أخبار مجموعة ص٤٤ ـ ٤٥ . فتح الأندلس ص٣٣ (ويذكر أنه ابن سبعين سنة) . البيان المغرب ٢/٣١ ـ ٣٢ .

(٢) البيان المغرب ٢/٣٢ .

ثالثاً : المضيق على عصر الإمارة (١٣٨ - ٣١٦هـ / ٧٥٥ - ٩٢٨م):

تظهر أهمية المضيق في تأسيس عبد الرحمن بن معاوية الإمارة في الأندلس ، إذ إن تفكيره وطموحه في ولاية الأندلس انبثق في نفسه عندما كان مقيماً عند قبيلة مغيلة بالقرب من ساحل طنجة ، ذلك أنه بحكم موقعه على المضيق وقربه من الأندلس قد اطلع على الشيء الكثير من أخبارها ، وما تعانيه من حالة الاضطراب ، فضلاً عن ما كان قد سمعه من الأندلس بحكم أنه أحد أفراد الأسرة الأموية . كما أن سالماً مولى أخته قد حدثه بشيء عن الأندلس وخبراتها الكثيرة ؛ لأنه كان قد دخلها مع موسى بن نصير(١).

وقد استغل عبدَ الرحمن بن معاوية هذه الاضطرابات وحاول أن يفيد منها في العبور إلى الأندلس ، وإقامة عصر جديد في الأندلس سمي بعصر الإمارة .

ويظهر دور المضيق في عصر الإمارة في عدد من الأحداث منها هيجة الربض(٢) في عهد الأمير الحكم الأول (١٨٠ - ٢٠٦هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢م) ، فقد كانت إحدى نتائجها عبور قسم من الربضيين - المنفيين خارج الأندلس - المضيق ، واستقرارهم في المغرب في عهد الأمير إدريس الثاني الذي سمح لهم بالسكن في مدينة فاس ، ونقلوا معهم معالم حضارتهم وطبعوا المدينة بطابع أندلسي حتى سميت ضاحية من المدينة باسم ضاحية الأندلسيين(٣) ، وهذا دليل على أن وضع المضيق آنذاك كان هادئاً وأميناً ، وبمقدور أي كان أن يعبر منه بسلام .

ولكن في العام ٢٤٥هـ / ٨٥٩م تعرض المضيق بساحليه الأندلسي والمغربي إلى هجوم النورمان(٤) ، وتمكنوا من دخول الجزيرة الخضراء ، وأحرقوا مسجدها ثم انصرفوا وعبروا

---

(١) أخبار مجموعة ص٥٧ . البيان المغرب ٢/٤١ - ٤٣ .

(٢) عن تفاصيل هذه الحركة ؛ ينظر : تاريخ المغرب والأندلس ص١٢٩ - ١٣٤ . تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس للسامرائي وآخرين ص١١٥ - ١١٧ .

(٣) تاريخ افتتاح الأندلس ص٥١ . البيان المغرب ٢/٧٧ .

(٤) تعود أصول النورمان أو (الفيكنج) Vikings إلى سكان البلاد الإسكندنافيه - أي (السويد ، ⇐

المضيق إلى الساحل المغربي منه ، حيث دخلوا منطقة الريف المغربي وتمكنوا من اقتحام مدينة نكور واستباحوها مدة ثمانية أيام ، ووصلوا في هجومهم هذا إلى البحر المتوسط[١]، وقد كرروا هجومهم على المضيق في العام ٢٤٨هـ / ٨٦١م[٢]، ولكن لم يستطيعوا أن يحققوا شيئاً ، بل دُحروا وولوا هاربين دون أن يتمكنوا من إلحاق أذى كبير بالمسلمين . وهذا يفسر لنا بأن الأسطول الأندلسي هذه المرة كان يقظاً في حراسة شواطئ المضيق فسلم المضيق من اعتداءات النورمان .

رابعاً : المضيق على عصر الخلافة (٣١٦ - ٤٢٢هـ / ٩٢٨ - ١٠٣٠م):

يتضح دور المضيق اتضاحاً أساسياً في عصر الخلافة الأموية بسبب الأزمة السياسية والعسكرية التي قامت بين الفاطميين في المغرب والأمويين في الأندلس ، فمنذ أن أسس الفاطميون دولتهم على أرض المغرب كانت المدن المغربية المطلة على المضيق هدفاً عسكرياً أولياً لهم بوصف ذلك مرحلة أولى للسيطرة على الأندلس فيما بعد ، وعلى هذا الأساس تحركت حملاتهم على سبتة وطنجة للاستيلاء عليهما من أجل التحكم بالمضيق عسكرياً ، ومن ثم سهولة عبورهم إلى الأندلس كما فعل العرب الفاتحون من قبل[٣].

وإزاء ذلك الخطر كان رد فعل الأمويين سريعاً تجاه نيات الفاطميين ، فعمدوا إلى

والنرويج ، والدنمارك) الحالية - وقد وردت تسمية هذه الأقوام في مصادرنا العربية باسم أردمانيون والمجوس ، وكلمة أردمانيون تعني سكان الشمال ، وهي تحريف لكلمة Norsemen الإنكليزية أو Normandess الإسبانية ، أما تسميتهم بالمجوس - أي عبدة النار - فلأنهم كانوا يشعلون النار في كل مكان يهاجمونه ، وفي سفنهم ، فظن العرب أنهم يعبدون النار . ينظر : تاريخ المغرب والأندلس ص١٤٨. غزوات النورمانيين على الأندلس للكبيسي ص ١٤٥ .

(١) تاريخ افتتاح الأندلس ص٦٥ . المقتبس لابن حيان ، تحقيق مكي ص٣٠٧ - ٣٠٩ . البيان المغرب ٩٦/٢ .

(٢) المقتبس ص٣١١ - ٣١٣ . تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ص ١٢٩ .

(٣) حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين ص٤٢ .

العناية بالمضيق عن طريق اتخاذ سلسلة من الإجراءات العسكرية التي كفلت لهم إبعاد يد الفاطميين عن المضيق ، والتي تمثلت بما يأتي :

١ ـ الهيمنة العسكرية على المضيق :

حرص الأمويون منذ عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ / ٩١٢ ـ ٩٦١م) على السيطرة على المضيق بجانبيه ، وتدعيم النفوذ العسكري فيه وزيادته ، ففي السنة (٣١٩هـ / ٩٣١م) ، أرسل الخليفة عبد الرحمن الناصر حملة بحرية للسيطرة على سبتة بقيادة (نجاح بن عفير) الذي تمكن من انتزاعها من يد حاكمها (الرضى بن عصام)[١] ، وعين الخليفة الناصر القائد نجاحاً والياً عليها[٢] ، ثم عمل على تحصينها ، ببناء سورها ووضع حامية عسكرية فيها من خيرة قواده وجنده[٣] . وحرص على الاحتفاظ بها نظراً لموقعها السوقي ، فمن خلالها تمكن من السيطرة على المضيق والتحكم فيه ، وتمكن أيضاً من السيطرة على المغرب والتأثير في سياسة أمرائه وحكامه للوقوف ضد الفاطميين ، ومنع وصولهم إلى المضيق وسيطرتهم عليه ، وقد صور لنا ذلك المقري بقوله : « كانت سبتة مطمع ملوك العدوتين ، وقد كان للناصر عناية واهتمام بدخولها في إيالته ، حتى حصل له ذلك ، ومنها ملك المغرب . . . وبها اشتد سلطانه ، وملك البحر بعدوتيه ، وصار المجاز في يده ، وتوطدت طاعته بأرض المغرب ، وكان أول

---

(١) الرضى بن عصام : يعود في أصله إلى (ماجكس) من وجوه قبيلة غمارة الذي كان قد أسلم ، وأعاد بناء مدينة سبتة بعد أن خربها المتمردون ، على إثر حركة ميسرة المطغري ، وقام بالأمر من بعده ابنه (عصام) إلى أن مات ، فتولى من بعده ابنه (مجير) إلى أن مات ، ووليها أخوه الرضى ، ويقال ابنه ، وكان بنو عصام يقدمون ولاءهم وطاعتهم لبني إدريس في فاس . ينظر : البيان المغرب ٢٠٣/١ . العبر ص١٠٤ : ٢١١/٦ . صبح الاعشى ١٥٩/٥ .

(٢) المغرب ص١٠٤ . البيان المغرب ٢٠٠/١ . العبر ٢١١/٦ . نفح الطيب ٣٤٠/١ (ويؤرخ سقوطها سنة ٣٢٧هـ /٩٣٨م) .

(٣) المغرب ص١٠٣ ـ ١٠٥ . البيان المغرب ٢٠١/١ . ويقارن : الخليفة الأموي الحكم للمزروع ص٨٢.

من سما إلى ذلك من أملاك الأندلس منذ سكنها الإسلام ، فاستظهر بها على أمره وخلفها ميراثاً لمن بعده من ولاة الأندلس . . . »[١] .

وقد وصفها ابن عذاري بقوله : « هي نظام باب المغربين ومفتاح باب المشرقين ، وهي على ما قيل مجمع البحرين ، قاعدة البر والبحر ، واللؤلؤة الحالة من الدنيا بين السحر والنحر »[٢] .

وفي أول ذي القعدة من السنة ٣٤٨هـ / ٩٥٩م ، أمر الخليفة الناصر ـ القائد (بدر الفتى) ـ صاحب السيف بعبور المضيق إلى سبتة على رأس جماعة من وجوه الموالي والعرفاء ، ورجال الجند ، لتجهيز العدد وآلات الحرب ، وأخذ الاحتياطات اللازمة من احتمال وقوع هجوم عليها من قبل (جوهر) قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (٣٤١ ـ ٣٦٥هـ / ٩٥٢ ـ ٩٧٥م) الذي تمكن من الاستيلاء على المغرب ، وأثر على النفوذ الأموي فيه ، وقد مكثوا في سبتة تنفيذاً لأوامره إلى أن انصرف القائد جوهر إلى القيروان ، وعادوا إلى الأندلس في آخر ذي الحجة من السنة (٣٤٨هـ / ٩٥٩م)[٣] .

وقد استمر هذا الاهتمام إلى ما بعد خلافة الناصر ففي السنة (٣٥١هـ / ٩٦٢م) وجه الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ / ٩٦١ ـ ٩٧٦م) عنايته واهتمامه بتحصين مدينة سبتة ، فقد أكمل بناء سورها ، كما اهتم بكسب ود سكانها وولائهم بإصدار أمر يقضي برفع جميع الوظائف المخزنية والمغارم السلطانية عنهم[٤] ، وكذلك حرص المنصور بن أبي عامر القائم بأمر دولة الخليفة هشام المؤيد (٣٦٦ ـ ٣٩٩هـ / ٩٧٦ ـ ١٠٠٨م) على ضبط سبتة برجال الدولة ، ووجوه القواد وطبقات العساكر[٥] .

---

(١) أزهار الرياض للمقري ٢/٢٥٧ ـ ٢٥٨ .
(٢) البيان المغرب ٢/٢٠٠ ـ ٢٠١ .
(٣) البيان المغرب ٢/٢٢٣ .
(٤) البيان المغرب ١/٢٢٧ .
(٥) العبر ٧/٣٧ .

وبعد احتلال سبتة كان من الطبيعي أن يقدم الخليفة الناصر على احتلال طنجة من أجل استكمال سيطرته على الساحل المغربي للمضيق ، فعندها بايع الأمير أبو العيش أحمد ابن قاسم بن كنون الادريسي عبدَ الرحمن الناصر وقطع دعوة الفاطميين ، فاقترح عليه الناصر التنازل له عن طنجة ليضيفها إلى سبتة ، فرفض أبو العيش ، فأرسل إليه الناصر أسطوله فحاصره وضيق عليه ، ولما رأى أبو العيش أنه لا طاقة له بحربه ، أجابه إلى مطلبه وتنازل له عن طنجة(١) ، واختلف في سنة وقوع طنجة بيد عبد الرحمن الناصر ، فابن أبي زرع يشير إلى نفس سنة احتلال سبتة أي ٣١٩هـ / ٩٣١م(٢) ، في حين يذكر البزيوي سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٤م(٣).

وقد أصبحت هاتان المنطقتان قاعدتين للانطلاق في العمق المغربي لتسديد الضربات للفاطميين ، وكل من يواليهم ، ومنعهم من التقدم نحو المضيق ، وفي الوقت نفسه غدت هاتان القاعدتان بمثابة جدار الأمان للسواحل الأندلسية المقابلة لها .

٢ ـ تقوية صلات الأمويين مع القبائل القاطنة على الساحل المغربي للمضيق

دأب الخلفاء الأمويين منذ عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر على احتواء القبائل القاطنة في المغرب عامة ، وعلى الساحل المغربي للمضيق خاصة ، من أجل اتقاء خطرهم أولا ، ولتحريضهم على الفاطميين وجعلهم سداً منيعاً يعيق تقدمهم نحو المضيق ثانياً ، وذلك بكسب زعمائهم(٤) ، من خلال جزل العطاء لهم ، ودعمهم بالمال والرجال ، وقد نجحوا في ذلك وخاصة مع عدد من فروع قبيلة زناتة من مغراوة ، ومكناسة ، وبني يفرن ،

(١) الاستقصا ١/١٩٦ ، ١٩٧ . الخليفة الأموي الحكم ص٨٢ ـ ٨٣ .

(٢) الأنيس المطرب ص ١٠٠ .

(٣) دول الإسلام للبزيوي ، ورقة ٢٤ .

(٤) من زعمائهم المشهورين على سبيل المثال ، والذين خاضوا سلسلة من الحروب استمرت سنوات ضد الدولة الفاطمية وحلفائها (الخير بن محمد بن خزر الزناتي وموسى ابن أبي العافية). ينظر : البيان المغرب ٢/٢٠٩ ، ٢١٧ . الأنيس المطرب ص٨٥ ـ ٨٦ . جذوة الاقتباس ١/٣٤٠ .

ودخلت هذه القبائل في حروب مستمرة مع الفاطميين وحلفائهم من قبائل صنهاجة [(١)].

وفي حالة تقهقر قبائل زناتة امام حلفاء الفاطميين من قبائل صنهاجة، ووصول خطرهم إلى المضيق، كان الزناتيون يستغيثون الأمويين في الأندلس لنجدتهم، ودفع خطر الفاطميين عنهم، ففي سنة ٣٦٩هـ / ٩٧٩ م، دخل (بلقين بن زيرى الصنهاجي) المغرب، وفرت زناتة وأمراؤها من بني خزر المغراويين وبني محمد بن صالح اليفرنيين إلى سبتة فحاصرهم، وعبر محمد بن الخير من آل خزر المضيق إلى المنصور بن أبي عامر يستنجده، وقد أدرك المنصور خطورة الموقف، إذ إن سقوط سبتة بيد الفاطميين يعني سيطرتهم على المضيق وتحكمهم فيه وتعرض الأندلس لخطرهم، لذا فقد سارع بعساكره إلى الجزيرة الخضراء، واتخذها قاعدة عسكرية للإشراف منها على العمليات الحربية في المغرب لأنها تعد أقرب نقطة إلى سبتة، ثم عقد (لجعفر بن علي بن حمدون) على حرب بلقين، فعبر بجيشه المضيق ونزل بساحة سبتة، وجاء بلقين وصعد جبال تطوان، وأطل على عساكر زناتة، وأهل الأندلس بساحة سبتة، ورأى أنه لا قبل له بحربهم، ففك حصاره عنهم، ثم عاد بجيشه إلى إفريقية[(٢)].

وعلى الرغم من قوة العلاقة بين الأمويين في الأندلس وزعماء قبيلة زناتة في المغرب، إلا أنه في حالة جنوح زعماء هذه القبيلة عن طاعة الأمويين، ووقوع المضيق تحت خطرهم، كان الامويون يسارعون للوقوف في وجههم، والحد من سلطانهم، وإعادة سيطرتهم على المضيق، ففي السنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، توترت العلاقة بين المنصور بن أبي عامر، وزيري بن عطية زعيم مغراوة الزناتية، وعزم زيري على خلع طاعة

---

(١) البيان المغرب ١/٢٥٢-٢٥٣، ٢/٢١٧-٢١٨، ٢٢٠، ٢٤٢-٢٤٣. مفاخر البربر ص٦، ٢١. العبر: ٤/١٤٦؛ ٧/ ٣٧.

(٢) مفاخر البربر ص١٧. الأنيس المطرب ص١٠١. الاستقصا ١/ ٢٠٨.

المنصور ومخالفته ، وطرد عماله من المغرب الاقصى وأجلاهم إلى سبتة[١] ، وقد تباينت المصادر التاريخية حول أسباب هذا التوتر[٢] ، ويبدو أن زيري كان قد عزم على الاستقلال ببلاده بعد أن شعر بقوته ، وبالمكانة الكبيرة التي احتلها بين قومه ، ويتضح ذلك في قوله عندما عبر المضيق عائداً من الأندلس إلى المغرب ، فعند نزوله في طنجة وضع يده على رأسه وقال : « الآن علمت أنك لي »[٣] ، مما يدل على أن الأسباب التي ذكرت في خلافه مع المنصور ما هي إلا ذريعة اتخذها لتحقيق هدفه في الاستقلال .

وعلى أية حال ما إن وصل خبر تمرد زيري إلى المنصور حتى سارع باستقدام مولاه وغلامه واضح الفتى من مدينة سالم (Medinacell) فأرسله بجيش كبير مدعوماً بأموال كثيرة إلى المغرب ، وعبر المضيق في السنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م ، واستقر في طنجة ، وأغلب الظن أن سبب نزوله في طنجة يعود إلى نية زيري في جعلها ضمن سيطرته ، فجاء نزول القائد واضح فيها من أجل السيطرة على الوضع فيها ، وإحكام السيطرة على الساحل المغربي للمضيق بكامله ، وتأمين خطوط مواصلاته مع الأندلس ، ثم أرسل إليه المنصور قوات إضافية من زعماء البربر وقادتهم من قبيلة زناتة المستقرين في الأندلس ، وطائفة من وجوه القادة الأندلسيين ، وانضم إلى جيش واضح عدد من القبائل الموالية للأمويين في

---

(١) الأنيس المطرب ص١٠٥ .

(٢) يشير عدد منها إلى أسباب سياسية منها غضب زيري وامتعاضه من المنصور بسبب غلبته على الخليفة هشام المؤيد وسلبه ملكه ، فضلاً عن استقباحه لقب الوزير الذي منحه إياه المنصور ، فقد وجد فيه تقليلاً من مكانته السياسية كأمير ينتمي إلى قبيلة كبيرة ، في حين تشير مصادر أخرى إلى أسباب اقتصادية وهي استقلال زيري العطاء الذي كان يرسله له المنصور كل سنة . ينظر : البيان المغرب ١/٢٥٣ ، ٢/٢٨١ . مفاخر البربر ص٢٢ . الأنيس المطرب ص١٠٤ . العبر ٤/١٤٨ . الاستقصا ١/٢١١ ، ٢١٣ .

(٣) مفاخر البربر ص٢٢ . الاستقصا ١/٢١١ .

المغرب من غمارة وصنهاجة وغيرهما[١].

وعندما تكامل جيشه خرج بهم من طنجة لقتال زيري الذي خرج لملاقاته من مدينة فاس ، والتقى الجمعان ، ودارت بينهما حرب أسفرت عن هزيمة القائد واضح ومقتل معظم جنده ، وفراره إلى طنجة ، ومن هناك كتب إلى المنصور يطلب منه المعونة والمدد بالرجال والأموال[٢].

وإزاء هذه التطورات الخطيرة أقدم المنصور على اتخاذ إجراءات سريعة فخرج بنفسه من قرطبة ونزل بالجزيرة الخضراء واتخذها قاعدة عسكرية لإمداد القائد واضح ، إذ أرسل إليه ولده عبد الملك المظفر بجند الأندلس وقادتها ، وبقي هو في الجزيرة الخضراء يراقب تطور الأحداث عن كثب ، مرسلاً لهم الإمدادات عند الحاجة ، وعبر عبد الملك من الجزيرة الخضراء ثم توجه إلى طنجة ، وانضم إليه القائد واضح وجيشه ، وساروا جميعاً لقتال زيري والتقى الجمعان (بوادي منى) في أحواز طنجة ودارت بينهما معركة نتج عنها جرح زيري وهزيمته إلى موضع يعرف بـ (مضيق الجنة) بالقرب من مدائن مكناسة ، وفاجأه عبد الملك بإرسال خمسة آلاف فارس بقيادة واضح الفتى فهاجمهم ليلاً وذلك في منتصف رمضان من السنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م ، وهرب زيري إلى فاس ثم إلى صحراء المغرب الأوسط إلى أن توفي هناك في السنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠م ، وتولى من بعده ابنه (المعز) الذي صالح المنصور وعاد إلى طاعته[٣].

---

(١) مفاخر البربر ص٢٨ . الأنيس المطرب ص١٠٥ ، ١٠٦ . الاستقصا ٢١٤/١ .

(٢) الأنيس المطرب ص١٠٥ ، ١٠٦ . الاستقصا ٢١٤/١ .

(٣) البيان المغرب ٢٥٣/١ ، ٢٨٢/٢ . مفاخر البربر ص٣١ - ٣٢ . الأنيس المطرب ص١٠٦ - ١٠٧ . جذوة الاقتباس لابن القاضي ١٩٨/١ - ١٩٩ . الاستقصا ٢١٥/١ ، ٢١٦ .

وساند الأمويون بني سعيد بن صالح أمراء نكور[١] الذين كان لهم دور كبير في الساحل المغربي من المضيق ، إذ شكلوا سداً منيعاً بوجه الفاطميين ، وقد لاقوا من وراء ذلك عناء كبيراً خفف من حدته دعم الأمويين المادي والسياسي لهم ، ففي ٣ محرم من السنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م ، تغلب الفاطميون على بني صالح ، ودخلوا عاصمتهم نكور ، وقتلوا أميرهم سعيد بن صالح وعدداً كبيراً من أفراد بيته ، وانهزم من نجا منهم وهم ثلاثة أبناء لسعيد بن صالح (صالح وإدريس والمعتصم) وعبروا المضيق إلى الأندلس ونزلوا مدينتي مالقة (Malaga) وبجانه (Pechina) وخيرهم الخليفة الناصر بالبقاء في مالقة أو المقام في العاصمة قرطبة ، ففضلوا البقاء في مالقة لقربها من المضيق ومن إمارتهم ، وذلك من أجل أن يتسنى لهم مراقبة تطورات الأحداث واغتنام الفرصة ، وعبور المضيق على وجه السرعة بدعم من الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وقد تحقق لهم ذلك وتمكنوا من استرجاعها وقتل عامل الفاطميين المدعو (ذلول)[٢].

وقدم الأدارسة ولاءهم إلى الأمويين ، واعترفوا بخلافة عبد الرحمن الناصر بعد سيطرته على الساحل المغربي للمضيق ، لأنهم رأوا أنه من الأصوب الانحياز له بعد أن أصبح سيد الموقف في المغرب الأقصى ، وأصبح قريباً من بلادهم فبايعه أميرهم

(١) قامت هذه الإمارة على الساحل المغربي للمضيق من منطقة الريف المغربي ، وتعود أصول الأسرة المؤسسة لهذه الإمارة إلى قائد يمني من حمير من أوائل الذين أسهموا في الفتح العربي لبلاد المغرب اسمه صالح بن منصور الحميري ، ويعرف بـ (العبد الصالح) كان قد افتتح أرض نكور ، ثم استقر بها بعد أن أقطعها له الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وأسلم على يديه عدد كبير من سكان المنطقة ، ونصبوه حاكماً عليهم ، ثم خلفه أبناؤه من بعده في حكم هذه المنطقة ، وكان لهذه الإمارة دور حضاري مشهود . لمزيد من التفاصيل عن هذه الإمارة ينظر إمارة نكور لنهلة شهاب أحمد ص٢١١ - ٢٢٨ .

(٢) المغرب ص٩٦ - ٩٧ . البيان المغرب ١/٧٩ - ٨٠ . العبر ٦/٢١٣ .

أبو العيش[١] ، وكافأهم عبد الرحمن الناصر بتأييدهم وتزويدهم بالعساكر والأموال والمؤن ، واستخدمهم لقتال الفاطميين وصدهم وقتال من يخالفهم من السكان المحليين[٢] ، ولكن موقف الأدارسة كان متأرجحاً بين تأييد الفاطميين تارة ، وتأييد الأمويين تارة أخرى[٣] ، والوقوف ضد الخلافتين عندما تتوافر لهم أسباب القوة والمنعة[٤].

وقد جابه الأمويون بصلابة الأدارسة ، وتآمرهم عليهم وخاصة في حالة تهديد سلطتهم في المضيق ، ففي سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢م ، نقض آخر أمراء الأدارسة (الحسن ابن كنون) طاعة الأمويين ، وقدم ولاءه للفاطميين وسيطر على مدن تطوان ، وطنجة ، وأصيلا ، وكلها مواقع سوقية مهمة ، ولا سيما طنجة التي حرص الأمويون على بقائها في يدهم فهي إحدى قواعدهم العسكرية المتقدمة في المنطقة . ولما وصل الخبر إلى الخليفة الحكم المستنصر شعر بخطورة الموقف ، وثار غضبه ، وحقد على الحسن ، وسارع إلى استدعاء قائده (محمد بن القاسم بن طملس) من حرب الثغور ، وأرسله بجيش كبير وعدة كاملة لمحاربة الحسن ، وأمره إن كتب الله له النصر أن يأخذ بالعفو والصفح وإصلاح البلاد والاهتمام بشؤون الرعية، وأن يستعين بمن دخل في طاعة الأمويين[٥] ، وقد تم عبور المضيق من قاعدتهم المفضلة الجزيرة الخضراء إلى سبتة ،

(١) أبو العيش : هو الأمير أحمد بن القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس . . . ابن الحسن بن علي ، كان فقيهاً ورعاً ، عالماً بسير الناس وأنساب القبائل ، شهيراً بحلمه وشجاعته وكرمه ، وكان يعرف بأحمد الفاضل . ينظر : الأنيس المطرب ص٨٧ ـ ٨٨ .

(٢) الأنيس المطرب ص٨٨ . الاستقصا ١٩٦/١ .

(٣) الأنيس المطرب ص٩١ . المؤنس لابن أبي دينار ص١٠٣ .

(٤) البيان المغرب ٢١١/٢ ـ ٢١٢ ، ٢١٦ ، أعلام المغرب لمنصور ١٠٥/٢ ـ ١٠٦ .

(٥) المقتبس لابن حيان ، تحقيق : الحجي ، ص ٧٩ ـ ٨٠ . البيان المغرب ٢٤٤/٢ ـ ٢٤٥ . مفاخر البربر ٨ ـ ٩ .

وفي الوقت نفسه أوعز إلى قائد البحر (عبد الله بن رماحس) بالتوجه بأسطوله إلى سبتة قاعدة الأمويين الوحيدة في ذلك الوقت على الساحل المغربي للمضيق ، للتعاون مع ابن طملس بشن هجوم على طنجة لاستعادتها ، وقد رفض أهل طنجة طاعة الأمويين بتحريض من الأمير الحسن الذي كان موجوداً آنذاك فيها ، ولكن عندما خرج منها لملاقاة ابن طملس الذي توجه من سبتة إلى تطوان ، ودخل معه في حرب أسفرت عن هزيمته ومقتل عدد كبير من جنده ، وتخليه عن طنجة وأهلها ، خرج شيخهم المدعو ابن (الفاضل) إلى القائد (ابن رماحس) مع جماعة من وجوه طنجة ، مقدمين الطاعة ، وطالبين العفو والأمان لأهل طنجة فأجابهم ابن رماحس إلى ذلك ، ودخل طنجة واستولى على ما كان للحسن وأصحابه من أموال[١]. أما القائد ابن طملس فقد استمر بمطاردة الحسن بن كنون ، ودخل معه معركتين ، نجح في الأولى ، وقتل في الثانية[٢] ، وهزمت القوات الأموية إلى سبتة وتحصنوا فيها[٣] وكتبوا إلى الخليفة الحكم يستغيثون به ، فسارع لنجدتهم ، واستدعى قائده ومولاه المشهور (غالب بن عبد الرحمن) من قاعدته في مدينة سالم ، وأمده بما يعينه على قتال الأدارسة ، وأمره بإنهاء مقاومتهم ، وهذا دليل على خطورة موقف الأمويين ، وتهديد سلطتهم في منطقة المضيق ، ويفسر لنا ذلك ، قول الخليفة الحكم المستنصر عند توديعه للقائد غالب : « سر يا غالب سير من لا إذن له في الرجوع إلا حياً منصوراً ، أو ميتاً فمعذوراً ، وأبسط يدك في الإنفاق ، فإن أردت نظمت للطريق بيننا قنطار مال »[٤].

---

(١) البيان المغرب ٢/٢٤٢ ـ ٢٤٥ . مفاخر البربر ص ٨ ـ ٩ . العبر ٦/٢١٨ . الاستقصا ١/٢٠٠ .

(٢) البيان المغرب ٢/٢٤٥ ـ ٢٤٦ . مفاخر البربر ص٨ ـ ٩ . الاستقصا ١/٢٠٠ .

(٣) الأنيس المطرب ص٩١ . الاستقصا ١/ ٢٠٠ .

(٤) مفاخر البربر ص٩ . الأنيس المطرب ص٩١ ـ ٩٢ . جذوة الاقتباس ٢/٥٠٤ ، العبر ٦/٢١٨ ، الاستقصا ١/٢٠١ .

وعبر غالب المضيق من الجزيرة الخضراء ونزل عند قصر مصمودة ، وأغلب الظن أن سبب نزوله في قصر مصمودة وليس في سبتة لأنها كانت آنذاك محفوفة بالمخاطر ومحاصرة بقوات الأدارسة ، والتقى بابن كنون هناك ، ثم أرسل الخليفة الحكم قوات أخرى بقيادة الوزير (يحيى بن محمد التجيبي) الذي استدعاه من قاعدته بسرقسطة[١] ، وهذا دليل على مدى حرص الخليفة الحكم واهتمامه في السيطرة على مضيق جبل طارق . وقد وضّح ذلك ابن حيان بقوله : « استظهارا على ضبط المجاز عليه وإليه ، واستطالة بفضل قوته ، واشتداد سلطانه »[٢] ، وانضم يحيى بقواته إلى القائد غالب ، في حين استمر الخليفة الحكم في إرسال مدده لغالب[٣] ، وشددت جميع القوات حصارها على ابن كنون الذي هرب إلى قلعة النسر[٤] ، حتى اضطر إلى الاستسلام وعفي عنه[٥] ، وهجر مع أهله وبقية أمراء الأدارسة إلى الأندلس[٦] .

وظهرت خطورة تقلّب الأدارسة من جديد واتفاقهم مع الفاطميين بعد نفيهم خارج الأندلس[٧] واتجاههم إلى مصر ، واستقرارهم بجوار الخليفة الفاطمي العزيز بالله نزار بن

(١) المقتبس ص١٢٨ . مفاخر البربر ص٩ .

(٢) المقتبس ص١٩٠ . ويقارن : الخلافة في الأندلس ص٩٩ .

(٣) المقتبس ص١٢٥ - ١٢٨ .

(٤) قلعة النسر : وتسمى بطلعة الحجر ، وهي حصن بناه إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م ، فوق جبل مرتفع شمال شرق القصر الكبير بالقرب من سبتة . ينظر : المغرب ص١٢٧ . الخليفة الأموي الحكم ص١٠٠ .

(٥) البيان المغرب ٢٤٨/٢ . الأنيس المطرب ص٩٢ ، العبر ٢١٨/٦ . جذوة الاقتباس ٥٠٥/٢ . الاستقصا ٢٠١/١ - ٢٠٢ .

(٦) مفاخر البربر ص ٩ - ١٠ ، الأنيس المطرب ص٩٣ . العبر ٢١٩/٦ . جذوة الاقتباس ٥٠٥/٢ . الاستقصا /٢٠٢ .

(٧) لمعرفة أسباب نفيهم ، ينظر : مفاخر البربر ، ص١١ - ١٥ . الأنيس المطرب ص٩٣ . العبر ٢١٩/٦. الاستقصا ٢٠٣/١ .

المعز العبيدي (٣٦٥ - ٣٨٦هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦م)[١] الذي وجد فيهم فرصته في القضاء على سلطة الأمويين في المغرب ، وفتح الطريق أمامهم في الوصول إلى المضيق وتهديدهم للأندلس ، ففي السنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣ م عقد الخليفة الفاطمي لابن كنون على ولاية المغرب وأمده بالمال والجيش ، والتف حوله كثير من القبائل ، وظهر أمره في المغرب وأخذ بتهديد سلطة الأمويين هناك ، وجاء رد فعل الأمويين عنيفاً ، فقد قام الحاجب المنصور بإرسال جيش بقيادة ابن اخيه (أبي الحكم عمر بن عبد الله بن أبي عامر) الملقب بعسكلاجه ، لحرب ابن كنون والقضاء عليه ، وخرج المنصور بنفسه إلى قاعدة الجزيرة الخضراء لمراقبة سير الأحداث ، ثم قام بإرسال قوات أخرى بقيادة ابنه عبد الملك المظفر ، واشتد الحصار على ابن كنون ، واضطر إلى الاستسلام وطلب الأمان ، ووافق القائد عسكلاجة على مطلبه ، وكتب بخبره إلى المنصور ، فأمره بالإسراع في إرساله إلى قرطبة ، إذ كان في نيته تصفيته والقضاء عليه لخطورته وكثرة نكثه للعهد ، وسعيه للفساد ، فأرسل من قتله وهو في طريقه إلى قرطبة في جمادي الأولى من السنة ٣٧٥هـ/٩٨٥ م[٢].

٣ ـ العناية بدور الصناعة الحربية وتقوية الأسطول :

أدرك الحكام الأمويون ، على إثر غارات النورمان منذ عهد الأمير عبد الرحمن الثاني ، وتزايد الخطر الفاطمي في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، ضرورة امتلاك قوة بحرية قوية قادرة على الدفاع وشن الهجوم ، وإحكام سيطرتها على مياهها الإقليمية ، ولا سيما منطقة مضيق جبل طارق[٣]، فاتخذ الخليفة عبد الرحمن الناصر مراكز وموانئ في هذه المنطقة وشحنها بالسفن والمقاتلين . وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله :

---

(١) دول الإسلام ، ورقة ٢٦ . الأنيس المطرب ص٩٣ . الاستقصا ١/٢٠٣ .

(٢) البيان المغرب ٢/٢٨١ . مفاخر البربر ص١٩ - ٢٠ . الأنيس المطرب ص٩٣ - ٩٤. العبر ٦/٢١٩ .

(٣) تاريخ مدينة المرية لسالم ص ٣٦.

« سار سنة [٣٠٢هـ] في العساكر . . . وانتهى إلى الجزيرة الخضراء ، وضبط البحر ، ونظر في أساطيله واستكثر منها »[١].

وأولى اهتماماً كبيراً بالجزيرة الخضراء ، فبنى داراً هائلة لصناعة السفن الحربية ، وأحكم بناءها ، وحاطها بالأسوار العالية والحصون المنيعة[٢] ، كما أشرف بنفسه على بناء حصن كامل في مدينة طريف في السنة ٣٤٩هـ / ٩٦٠ م ، وما يزال الحصن الذي بناه هناك باقية آثاره إلى الوقت الحاضر[٣].

وأصدر أوامره إلى الأسطول بفرض حراسة مشددة على مضيق جبل طارق لمنع وصول إمدادات الفاطميين إلى المتمرد عمر بن حفصون ، الذي ثار في جنوب الأندلس أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، واعترف بزعامة الخليفة عبد الله المهدي الفاطمي (٢٩٧ ـ ٣٢٢هـ / ٩٠٩ ـ ٩٣٣م) ، وقد أشار إلى ذلك ابن عذاري بقوله : « [وفي السنة ٣٠١هـ] ألفيت للمشرك عمر بن حفصون مراكب في البحر كانت تميره من العدوة ، فأحرق جميعها »[٤] ، كما أنه استطاع بهذا الأسطول أن يسيطر على الساحل المغربي للمضيق ـ كما أشرنا في الصفحات السابقة ـ .

واهتم الحاجب المنصور القائم بأمر الخليفة هشام ، اهتماماً كبيراً بالجزيرة الخضراء ودار صناعتها ، واتخذها قاعدة عسكرية للإشراف منها بنفسه على العمليات العسكرية في المغرب ـ كما أشرنا سابقاً ـ ، وأمر أن تبنى له القصور والمنازل

---

(١) العبر ١٣٩/٤.

(٢) هامش المحقق الرقم (٣) . تاريخ الأندلس ص ٩٠ . الروض المعطار للحميري ص ٢٢٣.

(٣) طريف لبروفنسال ١٧١/١٥ . الآثار الأندلسية الباقية لعنان ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٤) البيان المغرب ١٦٥/٢ . وقارن : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ص٢٠٦ .

The influence of Sea poowr on the History of Muslim spain, Nevill, Barbour, Vol. 14, p. 106.

في طريقه إلى الجزيرة الخضراء على غرار ما فعل في الطرق المؤدية إلى الثغور الأندلسية شمالاً [١].

وبسقوط حجابة العامريين في السنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٨ م وضعف الخلافة برزت أهمية المضيق في الأحداث السياسية ولاسيما في خلافة سليمان بن الحكم المستعين الثانية في سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ، عندما عهد لابني حمود[٢] بحماية المضيق ، فعيّن القاسم ابن حمود بن علي على الجزيرة الخضراء ، وولى أخاه علي بن حمود مدينتي سبتة وطنجة [٣]. وقد ارتكب بهذا الفعل خطأ كبيراً ، أذهب دولته ، وحياته ، إذ من يحكم سيطرته على سبتة وطنجة ، ويمتلك الجزيرة الخضراء ، باب الأندلس يطمح بالاستيلاء على الأندلس نفسها ، وهذا ما لاحظناه منذ أيام الفتح الأول للمسلمين ، وقد تنبه إلى ذلك بعض رجاله ونصحوه في العدول عن هذا القرار ، لكنه لم يأخذ بنصيحتهم [٤].

وقد استغل علي بن حمود موقع المضيق الجغرافي ، وساعدته في ذلك ظروف الدولة غير المستقرة ، ومركزه القوي بين سكان ولايته الذي حصل عليه بحكم استقرار قومه بينهم ، وتاريخ دولتهم الطويل في المغرب إذ أكسبهم صفة روحية بين المغاربة ، ولابد من أنه استخدمهم في مساندته وتنفيذ مخططه بالسيطرة على الخلافة الأندلسية ، فاستبد بسبتة في السنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م ، وعبر بقواته من سبتة إلى الجزيرة الخضراء وزحف إلى مالقه وتملكها ، ثم توجه إلى قرطبة حيث التقى بقوات المستعين ، ودارت بين الطرفين معركة

---

(١) مفاخر البربر ص ٣٠.

(٢) هما القاسم وعلي ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس الذي كان يحكم بلاد غمارة شمال المغرب على شاطئ البحر المتوسط ، كانوا قد عبروا إلى الأندلس ممن عبر مع الحسن ابن كنون سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م . ينظر : المعجب ص ٦٧ . مفاخر البربر ص٢٠ . العبر ٤/١٥٣.

(٣) الذخيرة ١/ق١/٣٨ . العبر ٤/١٥٣.

(٤) الذخيرة ١/ق١/٣٨ . البيان المغرب ٣/١١٤.

عنيفة اندحرت فيها قوات المستعين ، ودخل ابن حمود قرطبة في٢٢٠ من المحرم لسنة ٤٠٧هـ / ١٠١٦ م ، وقام بإعدام المستعين وأخيه ووالده .

وبمقتل المستعين تبدأ حقبة حكم الحموديين للأندلس(١) ، ولكن حكمهم لم يستمر طويلاً ، فتارة ينتقل إلى الأمويين وتارة يعود إليهم(٢) إلى أن انتهى الأمر بسقوط الخلافة في السنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٠ م بعزل هشام الثالث المعتد بالله آخر الخلفاء الأمويين في الأندلس .

* * *

(١) المعجب ص٦٨ . البيان المغرب ١١٦/٣، ١١٧ . العبر ١٥٢/٤.

(٢) للمزيد من المعلومات . ينظر : المعجب ص١٧ . العبر ١٥٤/٤.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطات

١ ـ دول الإسلام بالمغرب الاقصى ، عبد الله بن محمد بن أحمد بن عبد الله البزيوي ، مخطوطة المجمع العلمي العراقي (رقم ١٣١٣) مصورة عن مخطوطة المكتبة الملكية ، الخزانة العامة ، الرباط .

ثانياً : المصادر المطبوعة :

ـ أخبار مجموعة ، مؤلف مجهول ، تحقيق إبراهيم الإبياري (بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨١) .

ـ أزهار الرياض في أخبار عياض ، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد (بيروت ، دار الكتاب العربي ، بدون تاريخ) .

ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى ، أحمد بن خالد الناصري السلاوي ، تحقيق : جعفر الناصري ، ومحمد الناصري (الدار البيضاء ، ١٩٥٤) .

ـ إفريقيا ، كربخال مارمول ، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي وآخرون (الرباط ، مكتبة المعارف ، ١٩٨٤) .

ـ الإمامة والسياسية ، الجزء الخاص بالأندلس ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، نشر : خوليان رايبير (مدريد ، ١٩٢٦) .

ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع ، (الرباط ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، ١٩٧٢).

ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري ، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال (ط٢ ،بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٨٠).

ـ تاريخ افتتاح الأندلس ، أبو بكر محمد بن عمر بن القوطية ، نشر : خوليان رايبير (مدريد : ١٩٢٦) .

- تاريخ إفريقية والمغرب ، أبو إسحق إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني ، تحقيق المنجي الكعبي ، نشر : رفيق السقطي (تونس ، مطبعة الوسط ، ١٩٦٨) .

- تاريخ الأندلس (قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء)، أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس ، تحقيق : أحمد مختار العبادي (مدريد ، معهد الدراسات الإسلامية ، ١٩٧١).

- تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق : سهيل زكار (دمشق ، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي ، ١٩٦٨) .

- تاريخ الرسل والملوك ، محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٠) .

- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، أحمد بن محمد بن القاضي المكناسي (الرباط ، دار المنصور للطباعة ، ١٩٧٣) .

- الجغرافيا ، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي ، تحقيق إسماعيل العربي (بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، ١٩٧٠) .

- الجغرافية ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري ، تحقيق محمد حاج صادق (دمشق ، منشورات المعهد الفرنسي ، ١٩٧٠) .

- الحلة السيراء ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن الابار ، تحقيق حسين مؤنس (القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣) .

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، أبو الحسن علي بن بسام ، تحقيق إحسان عباس (بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٩) .

- ذكر بلاد الأندلس ، مؤلف مجهول ، تحقيق وترجمة لويس مولينا (مدريد ، المجلس الأعلى للابحاث العلمية ، معهد ميغيل اسين ، ١٩٨٣) .

- الرسالة الشريفة ، مؤلف مجهول ، ملحق بكتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية .

- الروض المعطار في خبر الأقطار ، محمد عبد المنعم الحميري ، تحقيق إحسان عباس (بيروت ، دار القلم ، ١٩٧٥) .

- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، محمد بن عبد الرحمن بن خلدون ، (بيروت ، منشورات الأعلمي للمطبوعات ، ١٩٧١) .

- فتح الأندلس ، مؤلف مجهول ، نشر : خواكين دي كونثاليث (الجزائر ، ١٨٨٩) .

- فتوح مصر وأخبارها ، عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، نشر : شارلس توري (نيوهيفي ، ١٩٢٢) .

- القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس ، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، أبو عبد الله محمد الإدريسي ، تحقيق : إسماعيل العربي (الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ١٩٨٣) .

- الكامل في التاريخ ، عز الدين أبو الحسن علي بن ابي الكرم بن الأثير (بيروت ، دار صادر ، ٦٥/١٩٦٦) .

- اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب ، السليماني (ط١ ، الرباط ، مطبعة الأمنية ، ١٩٧١) .

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد بن علي المراكشي ، تحقيق : محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي (ط٧ ، الدار البيضاء ، دار الكتاب ، ١٩٧٨) .

- المغرب عن بعض عجائب المغرب ، محمد بن رحيم الغرناطي ، تحقيق انكريدم بيكارتو (برشلونة ، ١٩٨٧) .

- المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب من كتاب المسالك والممالك ، أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري ، نشر : دي سلان (الجزائر ، ١٨٥٧) وأعادت نشره مكتبة المثنى ببغداد .

- مفاخر البربر ، مؤلف مجهول ، تحقيق : ليفي بروفنسال (الرباط ، المطبعة الجديدة ، ١٩٣٤) .

- المقتبس في أنباء أهل الاندلس ، أبو مروان حيان بن خلف بن حيان ، تحقيق : محمود علي مكي ، (بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٧٣) .

- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، محمد بن القاسم القيرواني بن أبي دينار ، تحقيق محمد شمام (تونس ، المكتبة العتيقة ، ١٣٧٨هـ) .

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (بيروت ، دار الكتاب العربي ، بدون تاريخ) .

- نهاية الأرب في فنون الأدب ، أحمد بن عبد الوهاب النويري ، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد (الدار البيضاء ، دار النشر المغربية ، بدون تاريخ) .

ثالثاً : المراجع الثانوية

- الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، محمد عبد الله عنان (القاهرة ، مؤسسة الخانجي للتأليف والترجمة ، مطبعة لجنة البيان ، ١٩٦١) .

- أعلام المغرب العربي ، عبد الوهاب منصور (الرباط ، المطبعة الملكية ، ١٩٧٨).

- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، خليل إبراهيم السامرائي وآخرون (الموصل ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٨٦) .

- تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، عبد العزيز سالم (ط١ ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٩) .

- جغرافية النقل والتجارة الدولية ، عبد العزيز محمد حبيب وآخرون (الموصل ، دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٨٩).

- الخليفة الأموي الحكم المستنصر ، وفاء عبد الله بن سليمان المزروع (جدة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، د.ت) .

- دراسات أندلسية ، عبد الواحد ذنون طه (ط١ ، الموصل ، دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٨٦) .

- دراسات في التاريخ الأندلسي ، عبد الواحد ذنون طه (ط١ ، الموصل ، دار الكتب للطباعة والنشر ، ١٩٨٧) .

- الدولة العربية في أسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة ، إبراهيم بيضون (بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٨٠) .

- الفتح والإستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس ، عبد الواحد ذنون طه (ميلانو ، بغداد ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٢) .

- العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط ، عمر فروخ (ط١ ، بيروت ، منشورات المكتب التجاري ، ١٩٥٩) .

- في تاريخ المغرب والأندلس ، أحمد مختار العبادي (الإسكندرية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، د.ت) .

- القاموس السياسي ، أحمد عطية الله (القاهرة ، دار النهضة العربية ، د.ت) .

- قاموس المصطلحات العسكرية ، محمد فتحي أمين (د.م ، د.ت) .

- القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ارشيبالد لويس ، ترجمة : أحمد محمد عيسى ، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال (القاهرة ، مطبعة النهضة المصرية ، د.ت) .

- مجمل تاريخ المغرب ، عبد الله العروي (الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، د.ت).

رابعاً : الدوريات

- إمارة نكور (بنو صالح الحميري في المغرب العربي) نهاية القرن الاول / بداية القرن الخامس الهجري ، نهلة شهاب أحمد ، مجلة التربية والعلم ، عدد ١١ (الموصل : ١٩٩١).

- حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين في القرن ٤هـ/١٠م من خلال مجالس النعمان ومقتبس ابن حيان ، موسى لقبال ، مجلة المؤرخ العربي ، عدد ٢١ (بغداد : ١٩٨٢) .

- طارق بن زياد ، محمود شيت خطاب ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الثاني ، مجلد ٣٩ (بغداد : ١٩٨٨) .

- غزوات النورمانيين على الأندلس في عصر الإمارة الأموية ، خليل إبراهيم الكبيسي ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ٤٠ (بغداد : ١٩٨٩) .

خامساً : المراجع الاجنبية :

1 - Apolitical history of Muslim spain Najmarsons , S.M. Imamuddin , Decca , 1969.

2 - Oxford dictionary of Gurrent English , A.S. Horn by , Oxford , 1980 .

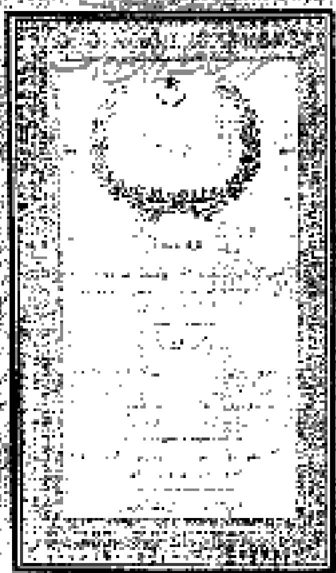
3 - The Golden trade of the moors , E.W. Bovill , 2nd , eidition , London : Oxford University , piress . 1968.

آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية محكمة

تصدر عن إدارة البحث العلمي والدراسات
مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة الرابعة - العدد السادس عشر - شوال ١٤١٧هـ - مارس (آذار) ١٩٩٧م



في هذا العدد

مقالات

الأهمية الاستراتيجية لجبل طارق عند العرب المسلمين

خلال القرون الوسطى

٩٢ - ٨٦٧ هـ / ٧١١ - ١٤٦٢م

الدكتورة نهلة شهاب أحمد
جامعة الموصل - العراق

تتناول هذه الدراسة الموقع والطبيعة الجغرافية لجبل طارق، ثم عرضاً تاريخياً لأهمية جبل طارق منذ فتحه العرب المسلمون عام ٩٢هـ/ ٧١١م، حتى سقوطه بيد الإسبان عام ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م، حيث شكل قاعدة عسكرية مهمة اتخذتها جميع الدول العربية الإسلامية التي تعاقبت على حكم المغرب والأندلس، فقد عدّ المفتاح الذي يتحكم في حركة الملاحة عبر مضيق جبل طارق، وإحدى نقاط الوصل التي تربط المغرب بالأندلس.

يقع جبل طارق Gibraltar في أقصى الطرف الجنوبي الشرقي من جزيرة إيبريا، وإلى الشمال الشرقي من ساحل مضيق جبل طارق[1]، وكان يعد واحداً من أعمدة هرقل[2]، Gelumnas de Hercules التي تحدد تخوم الملاحة في البحر المتوسط، وتسيطر على مضيق جبل طارق بأسره[3]. وكان يطلق عليه قبل الفتح العربي الإسلامي الاسم الفينيقي الأصل جبل كالبي Mons Calpo ومعناه التجويف أو الجبل المجوف، وذلك لوجود كهف في أسفله من ناحية البحر يعرف بغار الأقدام[4]

ويسمى الآن بمغارة القديس ميخائيل Migual San[٥]. ومن المفيد أن نذكر أن تسمياته قد تعددت بعد الفتح العربي الإسلامي، فقد عرف بالصخرة، وجبل طارق، ثم جبل الفتح في عهد الموحدين، ولكن اسم طارق غلب عليه آخر الأمر، فصار يعرف حتى الآن في معظم اللغات الأوروبية باسم Gibraltar.

والجبل عبارة عن شبه جزيرة من الصخر الجيري يبلغ طولها أربعة كيلومترات ونصف الكيلومتر، وعرضها نحو كيلومتر ونصف الكيلومتر، وتبلغ مساحتها حوالي سبعة كيلومترات مربعة، وترتفع أعلى قمة في الجبل إلى نحو اربعمائة وخمسة وعشرين متراً[٦]. وتقع في أقصى الطرف الشمالي الغربي من خليج جبل طارق شرقي مصب وادي الرنك مدينة قارطية Carteya[٧] ويبدو أنها حصن قرطاجنة الذي أشار إليه ابن عذاري[٨]، وقد سمى الحميري هذه المدينة بقرطاجنة الجزيرة[٩].

جبل طارق من الفتح العربي الإسلامي حتى سقوط دولة الموحدين

كان جبل طارق أول بقعة يفتحها العرب المسلمون، ففي رجب من سنة ٩٢هـ/ ٧٧١م نزل طارق بن زياد بجيشه الذي قدر بسبعة آلاف مقاتل عند حافة الجبل[١٠].

ومن الجدير بالذكر أن معظم مصادرنا القديمة تشير إلى حملة جبل طارق باقتضاب شديد، فهي تذكر أن طارقاً نزل في الجبل المنسوب إليه دون أن يلقى مقاومة[١١]. وهذه الرواية تبدو بعيدة عن الصواب لأن هذا الجبل يمثل موقعاً سوقياً مهماً منذ أقدم العصور فهو واحد من نقاط الاتصال بين المغرب وشبه جزيرة إيبريا والمتحكم في المضيق ضد أي هجوم يأتي من المغرب على شبه جزيرة إيبريا، ولا ريب في أن القوط حكام شبه الجزيرة مهما بلغ ضعفهم لم يهملوا هذه القاعدة السوقية ويتركوها دون حراسة ومراقبة[١٢]. لهذا لم يكن نزول طارق عند الجبل بهذه السهولة التي صورتها لنا بعض مصادرنا التاريخية، بل لابد من أنه قد جابه مقاومة عنيفة دفعته إلى تغيير خطته العسكرية والنزول بجيشه ليلاً في مكان آخر صخري ووعر، مستخدمين براذع الدواب ومجاذف السفن كي تعينهم خوض المياه وارتقاء الصخور بغية الالتفاف حول العدو والانقضاض عليه قبل أن يشعربهم[١٣]. وعلى الرغم من أن معركة جبل طارق كانت محدودة إلا أنها كانت على جانب كبير من الأهمية العسكرية، إذ قررت عملية نجاح فتح شبه الجزيرة والسيطرة على موضع قدم للجيش العابر من المغرب ومكنته من ضمان الاتصال مع خطوطه الخلفية في المغرب. ثم قام طارق وقواته بتحصين موقعهم في الجبل ببناء سور حولهم سمي بسور العرب[١٤]. وبعد أن أمّن طارق موقعه في الجبل ارسل كتيبة من المقاتلين تحت قيادة عبد الرحمن بن أبي عامر المعافري لفتح حصن قرطاجنة الواقع إلى الشمال الغربي من الجبل[١٥]، والذي يدعى الآن بـ Tone de Cartagerna.

ومنذ فتح جبل طارق حتى عصر الموحدين لم تشر مصادرنا التاريخية عن دور ومكانة جبل طارق سوى إشارة واحدة على عهد ملوك الطوائف عندما خشي صاحب إشبيلية المعتضد بن عباد (٤٣٣ - ٤٦١هـ/ ١٠٤٢ - ١٠٦٨م) على ملكه من

المرابطين في المغرب واحتمال عبورهم إلى الأندلس فأوعز إلى وزيره بقوله : «اكتب إلى فلان – يعني عامله على الجزيرة – بحفظ جبل طارق حتى يأتيه أمري»[١٦]. وهذه الرواية إن دلت على شيء فإنما تدل على الأهمية السوقية لجبل طارق في مواجهة أي خطر يأتي من المغرب.

لقد أدرك الموحدون الأهمية العسكرية لجبل طارق بوصفه موقعاً حربياً للاحتفاظ ببلاد الأندلس، فما أن انتهى خليفة الموحدين عبد المؤمن بن علي من تحرير مدينة المهدية من يد النورمان وانقادت له جميع أقاليم أفريقيا (تونس) حتى عاد إلى المغرب وأصدر قراره ببناء مدينة حصينة عند سفح جبل طارق سماها مدينة الفتح وسمى جبل طارق جبل الفتح، وهذا يعني أنه أراد أن يخصص هذه المدينة لخدمة الجهاد في الأندلس وإسناده وإعادة ما فقده المسلمون من مدن وقواعد هناك[١٧]. وأوكل الخليفة عبد المؤمن مهمة بناء المدينة إلى ولديه أبي سعيد عثمان والي غرناطه والسيد أبي يعقوب والي اشبيلية فأمر أبا سعيد بالتوجه من غرناطة بأصحابه وعسكره إلى جبل الفتح للتشاور مع عدد من الشخصيات (الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني وأبي اسحق براز بن محمد والحاج يعيش المالقي، من ألمع وأشهر المهندسين في عهد الموحدين والقائد عبد الله بن خيار الجياني) من أجل تحديد موقع بناء المدينة في الجبل. كما أصدر أمره إلى السيد أبي يعقوب بإشبيلية أن يستنفر جميع الفعلة والبنائين والنجارين والعرفاء من جميع بلاد الأندلس والسير إلى جبل الفتح، وابتدأوا بالبناء في الموضع الذي اتفق عليه الجميع[١٨] الذي استغرق ثمانية أشهر[١٩]. ومنذ ذلك الوقت أصبحت تلك المدينة قاعدة عسكرية للمسلمين على مضيق جبل طارق. وبعد أن تم بناء المدينة عبر الخليفة عبد المؤمن المضيق من سبتة ونزل في مرفأ جبل الفتح وذلك في شهر ذي القعدة من العام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م للإشراف على جهاد الممالك الإسبانية[٢٠] وقد كان يوم نزوله في الجبل يوماً مشهوداً، حيث أشاد الشعراء في قصائدهم بجبل الفتح وما يرجونه من جهاد من الخليفة عبد المؤمن في الأندلس[٢١].

وعندما عبر عبد المؤمن إلى جبل الفتح استنفر أهل المغرب، وقد استجاب له عدد كبير من قبائل العرب وعبروا معه، ومن ضمنهم قبائل بني عدي بن هلال بن عامر الذين كانوا ببلاد بني حماد شرق الجزائر، وبني رياح، وبني جشم، وقام بتوزيعهم في الأندلس فجعل بعضهم في قرطبة والبعض الآخر في نواحي اشبيلية وشريش، وقد انتشر من نسلهم في تلك المناطق خلق كثير[٢٢].

ومن خلال ما تقدم نلاحظ أن الموحدين قد أمنّوا وضع مضيق جبل طارق واستقراره، بحيث غدا معبراً آمناً لعبور الحملات العسكرية من المغرب إلى الأندلس للجهاد ضد الممالك الإسبانية.

جبل طارق في عهد المرينيين وبني الأحمر

لقد ازدادت الأهمية السوقية لجبل طارق في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي على عهد المرينيين سلاطين المغرب وبني الأحمر ملوك غرناطة بعد تقلص ممتلكات المسلمين في الأندلس وسقوط جزيرة طريف والجزيرة الخضراء بيد القشتاليين، ولم يبق للمرينيين وبني الأحمر غير جبل طارق حلقة وصل بين العدوتين، وقد تعرض جبل طارق قبل ذلك لمحاولات عديدة من قبل قشتالة

للاستيلاء عليه والتحكم في مضيق جبل طارق، ففي العام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م وبعد أن فشل ملك قشتالة فرديناند الرابع في الاستيلاء على الجزيرة الخضراء[٢٣] تقدم نحو جبل طارق وتمكن من الاستيلاء عليه، وقد استمر بقاء جبل طارق بيد القشتاليين مدة ٢٤ سنة حتى عام ٧٢٣هـ/ ١٣٣٢م عند ما عبر سلطان غرناطة محمد الرابع إلى المغرب وشكا للسلطان أبي الحسن لطلب ابن الأحمر محمد الرابع وأرسل ابنه الأمير أبا مالك على رأس قوة مرينية قدرت بـ(٥) آلاف جندي، وعبر المضيق لمنازلة جبل طارق وعسكر عند الجزيرة الخضراء وتلاحقت في إثره السفن تحمل العدد والمؤن فضلاً عن إمدادات ابن الأحمر وفرض حصاراً برياً وبحرياً على الجبل حتى تمكنوا من فتحه في عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م[٢٥]. وبعد ثلاثة أيام تقدم ملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر بعساكره وفرض حصاره على الجبل ولكنه اضطر إلى الانسحاب بعد أن رأى أنه لا أمل في استرداده وعقد معاهدة صلح مع السلطان محمد الرابع[٢٦]. وصرف الأمير أبو مالك بإيعاز من والده السلطان أبي الحسن اهتمامه بتحصين جبل طارق وشحنه بالقوات والعدد والرجال[٢٧].

وفي العام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م استغل ملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر توقف المرينيين عن نجدة العرب المسلمين في الأندلس بسبب انشغالهم بخلافاتهم الأسرية ومشكلاتهم الداخلية[٢٨]. فقاد بنفسه حملة للسيطرة على جبل طارق لبقائه همزة الوصل الوحيدة بين المغرب والأندلس لمنع وصول الإمدادات من المغرب إلى الأندلس ومن ثم سهولة القضاء على آخر معقل للمسلمين فيها (مملكة غرناطة)، وفرض ألفونسو حصاره على الجبل لكنه لم يتمكن من السيطرة عليه. فقد انتشر مرض الطاعون بين صفوف جنده وهلك فاضطرت قواته إلى فك الحصار في ليلة عاشوراء من السنة ٧٥١هـ/ ٢٠ آذار ١٣٥٠م[٢٩]، وقد زادت عناية المرينيين بجبل طارق فعندما تولى السلطان المريني أبو عنان الحكم سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م جدد تحصينه وزاد في بناء سوره وشحنه بعدد الحرب والأقوات، وقد وصلت درجة اهتمامه بجبل طارق أنه أمر ببناء شكل يشبه شكل جبل طارق[٣٠]. وفي السنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م انتهز بنو الأحمر فرصة ضعف الدولة المرينية وانحلالها فقاموا بالسيطرة على جبل طارق، وبهذا خسر المرينيون آخر معقل لهم على الساحل الأندلسي للمضيق[٣١].

وفي عهد سلطان غرناطة يوسف الثالث ٨١٠ - ٨٢٠هـ/ ١٤٠٧ - ١٤١٧م ثار أهل جبل طارق لأنهم سئموا ملك بني الأحمر لهم لاعتقادهم أن المرينيين أقدر على حمايتهم من غارات الاسبان فبعثوا إلى السلطان المريني أبي سعيد عثمان ٨٠٠ - ٨٢٣هـ/ ١٣٩٧ - ١٤٢٠م الذي أرسل جيشاً لاستعادة جبل طارق إلى حكم المرينيين وفتح أهل الجبل باب مدينتهم للجيش المريني لكن حاكم الجبل الغرناطي تحصن وأرسل إلى السلطان الغرناطي يطلب النجدة وسارع السلطان بإرسال المدد إليه فتمكن من إلحاق هزيمة ساحقة بالجيش المريني[٣٢]، واستمر بقاء جبل طارق بيد بني الأحمر حتى تمكن القشتاليون من السيطرة عليه وذلك في السنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م[٣٣]. وهكذا انتهت السيادة الإسلامية على هذا المعقل الحيوي، وابتدأ عصر السيطرة الاستعمارية التي ما تزال آثارها باقية إلى الوقت الحاضر متمثلة بسيطرة بريطانيا عليه.

هوامش ومصادر البحث

١ - ممر مائي ضيق تلتقي فيه مياه غرب البحر المتوسط مع مياه شرق المحيط الأطلسي ويضم ساحله المغربي كلاً من مدينة سبتة وقصر مصمودة وطنجة وساحله الإيبري يضم كلاً من جبل طارق والجزيرة الخضراء وجزيرة طريف. الإدريسي: القارة الافريقية وجزيرة الأندلس من كتاب نزهة المشتاق تحقيق، اسماعيل العربي (الجزائر : ١٩٨٣) ص ٢٤٧، ٢٥٠.

٢ - المقصود بأعمدة هرقل هي كل من سبتة وجبل طارق، ينظر : سيبولد، جبل طارق (دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ج/٦) ص ٢٩٧.

٣ - المرجع نفسه، ص ٢٩٧. وينظر Levi - provencal, Histoive de l Espange Musulman, Parise, Leiden 1950, vol. 1, p. 18.

٤ - الإدريسي، المصدر السابق ص ٢٦٣؛ الحميري، الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس (بيروت ١٩٧٥) ص ٢٨٢

٥ - هامش المحقق رقم (٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادي (مدريد، ١٩٧١) ص ٦.

٦ - سيبولد، المرجع السابق ج/٦، ص ٢٩٦.

٧ - Encyclopaedia Britanaica artical : Gibraltar, vol 8 p. 156.

٨ - ابن عذاري. البيان المغرب، تحقيق: ج. س كولان وليفي روفنسال (بيروت، ١٩٨٠ ج/٢) ص ٩.

٩ - الروض المعطار، ص ٤٦٢.

١٠ - مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، تحقيق : إبراهيم الأبياري (بيروت، ١٩٨١) ص ١٧.

١١ - المصدر نفسه، ص ١٧؛ ابن الشباط، وصف الأندلس وصقلية من كتاب، صلة الصمت وسمة المرت، تحقيق أحمد مختار العبادي (مدريد، ١٩٧١) ص ١٣٤؛ النويري، نهاية الأدب، تحقيق : مصطفى أبو ضيف أحمد (الدار البيضاء د. ت ج/٢٢ ق٢) ص ٣٠٤؛ ابن خلدون العبر، (بيروت، ١٩٧١ ج/٤) ص ١١٧.

١٢ - أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس (الاسكندرية د. ت) ص ٦٠ - ٦١.

١٣ - ابن الكردبوس، المصدر السابق ص ٤٦.

١٤ - ابن عذاري، البيان المغرب، ج/٢، ص ٩؛ ابن خلدون، المصدر السابق ج/٤، ص ١١٧.

١٥ - مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق وترجمة : لويس مولينا (مدريد، ١٩٨٣) ص ١٧٥، ١٧٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب ج/٢، ص ٩، ٢٥٦، ٢٥٧.

١٦ - ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق : إحسان عباس (بيروت، ١٩٧٩ ج/١ ق٢) ص ٤٠؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق : حسين مؤنس (القاهرة، ١٩٦٣ ج/٢) ص ٥١ - ٥٢.

١٧ - ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق : عبد الهادي التازي (بغداد، ١٩٧٩) ص ١٣٠؛ وقارن : Torres Balbas, Gibraltar, llavey Guarde de Espana, Rerista de al-Andalus, vol. VII, p. 67.

١٨ - ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق ص ١٣٠ - ١٣٢، وينظر هوامش المحقق الرقم (٤) ص ١٣٠ والرقم (١) والرقم (٣) ص ١٣١.

١٩ - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب (الرباط، ١٩٧٢) ص ١٩٩.

٢٠ - ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ١٣٨، ١٣٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب، نشر : أمبروسي هويس هيراند، بمساهمة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني (تطوان، دار كريماديس للطباعة، د. ت) ص ٤٥.

٢١ - ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق ص ١٤٢، ١٥٤، ١٥٩، ١٦٨.

٢٢ - المصدر نفسه، ص ١٣٥، ١٣٦؛ المراكشي، المعجب، تحقيق : محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي (الدار البيضاء، ١٩٧٨) ص ٣٢٨، ٣٣١.

٢٣ - ابن خلدون، المصدر السابق ج/٧، ص ٢٢٨.

٢٤ - ابن الخطيب، اللمحة البدرية (بيروت، ١٩٨٧) ص ٧٥: ابن خلدون، المصدر السابق ص ٢٥٥.

٢٥ - ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص٩٤؛ ابن خلدون، المصدر السابق ص٢٥٥.

٢٦ - ابن الخطيب، كناسة الدكان، ص ٢٩؛ مريانواريباس بالاو، بنو مرين في الاتفاقيات المبرمة بين أراغون وغرناطة، مجلة تطوان، عدد ٨ (الرباط : ١٩٦٣)، ص ١٩٦.

٢٧ - ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٢٥٦.

٢٨ - ابن الخطيب، كناسة الدكان، ص٢٩ - ٣٠؛ ابن خلدون، المصدر السابق ص ٢٦٠.

٢٩ - ابن الخطيب، كناسة دكان، ص٣٧؛ اللمحة البدرية، ص ١٠٨.

٣٠ - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق : محمد الشرقاوي (القاهرة د. ت) ص ٢٦٧، ٢٦٨.

٣١ - ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

٣٢ - السلاوي؛ الاستقصا، تحقيق : جعفر الناصري ومحمد الناصري (الدار البيضاء، ١٩٥٤) ج/٤، ص٩٣، ٩٤؛ وينظر محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس (القاهرة، ١٩٧٨) ص ١٥٣، ١٥٤.

٣٣ - السلاوي، المصدر السابق ج/٤، ص ٩٨.